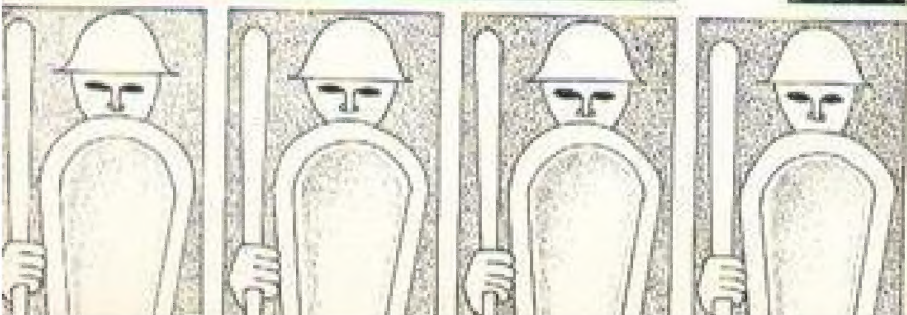


حجر دانی

رضوی عاشور



حجرت
دافعی

حجر داني

د. رضوی عاشور



دار المستقبل العربي

تصميم الغلاف

للفنان محمد بغدادى

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى ١٩٨٥

دار المستقبل العربى

٤١ شارع بيروت مصر الجديدة
ت ٦٦٥٩٠٠ القاهرة

محطة مصر

وقفن أمام البوابة الحديدية ومعهن الحقبة الكبيرة التي اودعت فيها
بشرى ملابسها وسللة الخوص التي ملأتهن لها أمها بالقرص والمنين وكان
الرجال قد سبقوا الى الشارع لايفاف ثلاث سيارات أجرة

توقفت السيارات أمام البيت ، ركبوا ، طرقت الأبواب وعلا صوت
المحركات انطلقت السيارات عدة أمتار في نفس الشارع انخرقت بعدها يسارا ثم
يمينا الى شارع القصر العيني وواصلت في خط مستقيم حتى ميدان التحرير
تجاوزت مبنى الجامعة الأمريكية عن يمينهم وبناتى الجامعة العربية والمتحف المصرى
وفندق هيلتون الواقع بينهما عن يسارهم وكان المرور في شارع رمسيس بعد ذلك
منسابا فلم تستغرقهم الطريق وقتا طويلا .

عندما وصلوا الميدان لم تنحرف بهم السيارات الى اليسار مباشرة ليعبروا الى محطة القطارات ولكنها دارت من خلف المبنى العتيق الذى تعلوه لافتة تعلن عن جمعية دينية قبطية ودخلت الى شارع جانبى يتقاطع مع شارع رمسيس ثم توقفت عند اشارة المرور تنتظر الضوء الأخضر وكان مبنى المحطة يواجههم الآن مباشرة بطرازه المعمارى الاسلامى ونوافذه ذات الاقواس المؤطرة بمساحات من الطلاء الأزرق وتمثال رمسيس يبدو جانبيا غطاء الرأس الفرعونى ، تاج الوادى الموحد ، الهامة الملكية ، المنكب العريض العارى ، الخصر المؤنزر ، الساق تواكب الساعد فى حركة هندسية ، القدم الحجرى العريض

أضاءت الاشارة الخضراء فعبروا فى المساحة الفاصلة بين ظهر التمثال المستند الى عمود حجرى عليه نقش كتابة هيروغليفية والحائط الغربى لمحطة القطارات

توقفت السيارات ونزلوا تقدمهم عبد التواب وهو يطلب منهم ان ينتظروه عند بائع الجرائد تحت الساعة حتى يتأكد من موعد قيام القطار ورقم رصيف الركوب ودخل من باب المحطة فتبعوه انحرف يسارا وانجهوا هم الى حيث اشار عليهم

كانت المحطة نموج بالحركة والأصوات أصوات المسافرين والمودعين والقادمين والمستقبلين والباعة والشياطين ومحركات القطارات وصفافيرها والمعلنين عبر مكبرات الصوت عن مواعيد القيام والوصول

وقفوا ينتظرون بالقرب من الحامل الخشبي للجرائد والمجلات وشاهدوا النسوة الريفيات يغادرن أرصفة الوصول الى العاصمة يلبسن الأسود التقليدى ويتعلن أحذية البلاستيك المتربة ويهرولن حاملات على رؤوسهن سلالا كبيرة أو

حللا نحاسية عتيقة ، يركض من ورائهن أطفالهن

عرض عليهم صبي يحمل صندوقا خشبيا داكنا أن يسمح لهم أخذتهم
مر بهم رجل يقود أسرته كقطيع صغير ثم مجموعة من الجنود يحملون حقائبهم
القديمة ، صغار السن يلبسون الكاكي وتكشف أعناقهم ووجوههم المشربة بالحمرة
الداكنة انهم يقضون اوقانا طويلة تحت شمس محرقة

اتى عبد التواب مهرولا واخبرهم ان عليهم ان يسرعوا لأن الرصيف في
الناحية الأخرى

حمل على حقيبة اخته وسيد السلة خلفهما سارت بشرى بين أمها
وسلمى تبعتهن منيرة وابتاها

شقوا لأنفسهم طريقا وسط الزحام مروا بمسافرين على عجلة مثلهم او
متمهلين او واقفين في انتظار شيء أو آخر كادوا يتعثرون في الحقائق والسلال
والقفف والمقاطف والصناديق الكرتونية والنساء اللاتي يفتشن مع صغارهن
وصررهن الأرض وأخيرا وقفوا عند سيدة تغطي شعرها بمنديل قطني منقوش
بجوارها حقيبة كبيرة مربوطة بحبل عوضا عن قفلها المكسور واخرى اصغر فُصِّل
لها غلاف من الدمور لحفظها

كان القطار واقفا على القضبان وموازيا للرصيف مفتوح الأبواب للمسافرين
الذين بدأوا يركبون سلمت بشرى على أمها اولا واحتضنتها ثم احتضنت سلمى
وراحت بعد ذلك تسلم على الآخرين وتقبلهم ودعتهم جميعا الا على وسيد
الذين صاحبها بالحقيبة والسلة الى داخل القطار ثم سلمت عليهما ونزلا

لم تجلس بشرى فى مقعدها بل وقفت تتحدث اليهم من نافذة القطار
وحين دق الجرس واغلقت الابواب مدت يدها وامسكت بيد امها ثم مالت
بجذعها كثيرا ولثمتها ، فى هدوء

وبدأ القطار يتحرك

شمس تفكر فى الزمن

□ □ تساءلت شمس وهى ترقد فى فراشها ان كانت السنوات تمر ببطء ام
فى غمضة عين ، فكأنه الأمس حين كانت بشرى رضيعة فى الأقمطة البيضاء
تحرك شفيتها بحثا عن ثديها ، تغفو وهى ترضع فتضطر لابقاظها بحك انفها
بأطراف أصابعها

بل كأنه الامس حين جاءت الى البيت الذى كان جديدا ولامعا ككل
الاشياء الاخرى ،البوابة الحديدية الخضراء ، الجدران المطلية حديثا ، الأحواض
البيضاء ، الصنابير المعدنية ، الأواني ، الأثاث ، الحوائط التى ضمت
ملابسهما حتى هما كانا جديدين ، هى بأعوامها الثمانية عشر ، وهو بشعره
الأسود وشاربه الكث وبريق عينيه وضحكته الصاخبة

وفى نفس الاسبوع سكن البيت عروسان آخران فقال أهل
الحى « بيت العرسان » ثم حملت هى وجارتها فكان الناس حين تسييران معا
منتفختى البطن ويؤدى الخطى يرمقونهما بنظرة خبيثة ويتسمون فى الأول ولدت
هى بشرى ثم وضعت قدرية سلمى وقالت أم عبد التواب التى كانت تلبس ثوبا

أسود وتغطي شعرها بطرحة سوداء حين رأت حفيدتها « أى بخت ، بنتان تولدان فى بيت واحد فى نفس الشهر ! » كانت المرأة كالغراب فلم تطق شمس وجودها حملت سلمى فدر ثدياها حتى ابتل ثوبها ، أرضعتها

فى البداية يكونون كقطع العجين الدافئة فى اليدين ثم يكبرون كأنه الأمس حين كانت تحكم اغلاق النافذة والباب وتخلع عن على ملابسها الصغيرة وتحميه بالماء الدافئ تجلسه فى الحوض وتصبنه بيد وباليه الأخرى تمسك به حتى لا ينزلق ثم تشطفه بالماء وتجففه وتدعك له صدره وظهره وأطرافه بالزيت والآن ان نسى على المنشفة يطل برأسه من باب الحمام يطلبها وحين تحملها اليه يبتعد فلا ترى سوى يد تمتد

قامت شمس من السرير وخرجت الى الشرفة ، بنفسج السحر يمتزج بالأبيض وفى الأفق خيوط برتقالية لا بد أن بشرى الآن مستغرقة فى النوم فى مكانها الجديد بشرى تشبهها كثيرا ، هكذا يقول الناس وسلمى عذبة وهشة ، تشبه المرحومة قدرية تنهدت شمس ، فى لحظة الموت يبدو الحزن كجبل لا يتزحزح ، ثم يتزحزح

نظرت الى ساعتها ، كانت تقترب من السادسة دخلت الحمام وغسلت وجهها ثم اشعلت الموقد فى المطبخ ووقفت امامه تنتظر غليان الماء

هل يمر الزمن بسرعة أم ببطء ؟ فى البدء كان للأشياء رونق كسلة ذات نقوش زاهية وملونة ، سلة جديدة يحملها الانسان تبرجا ثم يأتى الأطفال والقلق ، وحجر يتعثر به المرء فى الطريق ، وحكاية يخفيها فى قاع السلة حتى لا يلحقها كل يوم ، والمقرء فى ليلة المأتم ثم يذهب . ثقيلة أم خفيفة تلك السلة ؟ وهؤلاء

الأولاد والبنات ، كم مرة اشعلت موقدا وسخّنت ماء وبلل العرق شعرها وهى تقف وسط بخار الحمام تغسل لهم صدورهم وظهورهم وتوئخهم على اتساخ آذانهم ، كم مرة كاد ينخلع قلبها على تأخر أحدهم ؟ من يقول ماما شمس ومن يقول خالتي شمس ، يخرجون الى مدارسهم فى الصباح وفى المساء دائما يرجعون ويملاؤون البيت فيصير كالشجرة التى تحت نافذتها ساعة الغسق مثقلة بالعصافير فى أعشاشها .
سلة ثقيلة ؟ وان تكن !



منيرة
تخلط بين
الهرم وشارع الهرم

لو أن الرجل يكف عن اصدار هذا الصوت الذى ينخر كسلك اذنيها ولكنه يواصل بدأب يحسد عليه وتستمر يد سلمى فى تسويد الصفحات البيضاء بخطوطها وأشكال لا تشغلها لأنها تفكر ان خارج قاعة الدرس شمسا برتقالية وهواء يهز السعف الأخضر وجذوع النخل السامقة ثم ترن فى القاعة تغريدة طائر يفاجئ الصمت كما صوت المؤذن فى الفجر فتحمل أوراقها وتطلب من الاستاذ ان يسمح لها بالخروج « اننى متعبة » تقول وما ان تغلق الباب خلفها حتى تقفز كالجنبد وتهبط الدرج ركضا ثم تتجه الى حيث اوقفت دراجتها تضع كلتا يديها على المقود وتجريها باتجاه البوابة الحديدية والنصب التذكارى لشهداء الجامعة . تدق الساعة دقتين

الرابعة والنصف تتجه يسارا وتسير بمحاذاة النخل العالى وسور الجامعة تنحرف يسارا مرة أخرى مع السور فتصير أشجار حديقة الأورمان العتيقة خلف ظهرها وبرج الساعة وقبة الجامعة ومبانيها الى يسارها ثم تقفز الى دراجتها وتتجه غربا

الشارع الممتد مزدحم بالسيارات الملونة وسيارات الأجرة السوداء والعربات الخشبية والشاحنات والأوتوبيسات المحشوة بالركاب والمشاة من طلاب الحرم وسكان المدينة الجامعية والمارة وقفت عند اشارة المرور تنتظر انتهاء سيل السيارات القادم من « بين السرايات » ولاحظت ان ركاب الاوتوبيس الذى أمامها انضغطوا فيه فاكتسبت وجوههم واجسامهم المتلاصقة والمتداخلة اشكالا غريبة ربت على مقود دراجتها فى امتنان وابتسمت فابتسم لها شاب يقف بسيارته عند اشارة المرور مثلها فسبته أضاء النور الأخضر ، وضعت قدميها على البدالات وواصلت طريقها

قبل التقاطع الكبير والمزلقان يبدأ ازدحام اضافى الباعة والشارون يحتلون الرصيف وجزءا من الشارع عربات الكشوى تحمل كل منها هرما من الأرز المخلوط بالعدس تجاوزه المكرونة عربات يرتقال ويوسفى صُفَّت عليها الثمار بالواحدة فى اشكال هرمية ملابس داخلية وجوارب وشنط جلدية متعددة الألوان معلقة على حبال مثبتة بأكشاك خشبية وحوامل من جريد وضعت عليها أرغفة خبز او جرائد ومجلات للبيع

تتجاوز سلمى ذلك كله كما تتجاوز سياج قسم الشرطة المطلى بلون احمر فسفوري صارخ تزينه لافتات ضخمة تعلن ان الشرطة فى خدمة الشعب وتصل الى الشرطى العتيق الواقف فى الميدان ، تعبر شريط السكة الحديد ثم تنحرف يمينا وعندما تجد المراجيح التى لايشغلها اصحابها الا فى المواسم والأعياد تدخل

يسارا وتعرف انها على وشك الوصول ، ثم تصل

وتختفى عيناها بالمدى المفتوح أخضر زراعى ونخيل والاهرام فى البعد
ينحسر ضوءاء المدينة وتملاً المكان زقزقة العصافير الكثيرة التى يؤكد تغريدها
سكون المكان تماما كما يؤكد الصغير المباغت والمتقطع لقطار عابر لاتراه

حين جاءت للمرة الأولى كانت قبلها تجلس فى نفس قاعة الدرس أمام
ذات المحاضر وكان مايقوله باهتا تماما كصوته الخافت وإيقاعه الرتيب ويدالها
وهى تغالب الشاؤب أن أمنيها فى تلك اللحظة ان تنعم بالنوم فى فراشها ثم باغتتها
تغريدة الطائر الذى لم تعرف نوعه وتساءلت ان كان كروانا صوت واحد رن فى
المكان فترك روحها ، عقلها ، حواسها الخمس ، مستيقظة ومقبلة وحاولت
وهى تغادر القاعة أن تحدد مصدر الصوت ثم تتبععت الطريق الى النخيل وصارت
تأتى لتفترش الأرض تتأمل المكان وأحيانا تمسك قلما وتكتب

وفى مرة كتبت

هل هذا بيتى أم انه الجسد ؟
أبواب هذه أم حواس ؟

راقصة لها تاج — مروحة من سعف أخضر
وأقراط من عنبر يُشهى
يرقبها قرص برتقالى شبق
وأشكال هرمية كمثلثات صغيرة
متلاصقة على صفحة عريضة

لكراس رسم مدرسى
مثلثات أم تيجان ؟

تعالوا جميعا ،
تعالى أيتها النخلة ، ياقرص الشمس تعال
ويا لأهرام
تفضلوا
ها أبواى مشرعة
تفضلوا تفضلوا

ثم تفرض ضرورة الذهاب نفسها فتطوى الورقة وافكارها وتركب دراجتها
وبروحها شئ يريد ان يتعجل العجلة ويطير ثم تدخل الزحام وتصبح جزءا من
حركة المرور البطيء ، سيل السيارات والشاحنات والاضواء الحمراء دائما وحين
تصل الجامعة تسير بمحاذاة السور ثم تنحرف معه يمينا ثم يسارا الى الجسر
تطالعها الشيات الحجرية لثوب فلاحة مختار ومؤخرة الى الهول الجرانيتية وتتمنى لو
كانت آتية من الناحية الأخرى لترى التمثال كاملا وهو يتألق في الليل تحت اضواء
الكشافات المحيطة به ولكنها تعبر النهر الى جزيرة المنيل ثم المجرى المائى الصغير
الذى يفصل حد الجزيرة الشرقى عن الضفة الأخرى وتصل الى شارع القصر
العينى ومنه أخيرا الى البيت

تركت الدراجة فى مدخل البيت ثم صعدت الدرج الى الطابق الثانى
نظرت فى ساعتها فوجدتها تقترب من التاسعة « سيوخنونى » قالت ودقت
الجرس

- فتحت لها زوجة أبيها وكان وجهها ممتعاً وقالت أن أباهما ينتظرها منذ ساعتين وأنه أقسم ألا تمر الليلة على خير ثم بعثاب
- أفلقتنى ، أين كنت ،
وللحظة حارت في الاجابة
- عند الهرم !
قالتا بشيء من حماس لأنها وجدت الرد فامتقع وجه منيرة أكثر وقالت مستنكرة بصوت هامس
شارع الهرم ! كنت في ملهى في شارع الهرم !؟
داهمت سلمى رغبة حادة في الضحك حاولت مغالبتها ولاحظت زوجة أبيها ذلك
- هل تسخرين منى !؟
قالتا باستنكار ولما لم تجب ازداد غضبها وعلا صوتها وجاء عبد التواب وهوى بكفه على وجه ابنته وكانت الصفحة هي ذروة الموقف ونهايته

زواج الأولاد فرح

□ □ في يومين متتالين سقطت من يد سلمى ثلاثة أكواب زجاجية انكسر منها اثنان وعلفت شمس على الأمر قائلة « سلمى مشغولة بالعريس ! » وابتمت ولكنها كانت تعرف ان البنت قلقه

وكانت امينة ومديحة تجلسان أمامها على الأريكة وهى تشى ذيل ثوب جديد حاكته لسلمى وتحكى لهما ماقالته أم العريس لها ولنيرة من أنها حلمت بأنها تشتري لابنها خاتماً ذهبياً فأيقنت بأن الله كتب له الزواج استعرضت بنات

العائلة واحدة واحدة ، هذه قصيرة ، وتلك تلبس نظارات ، والثالثة تضحك بصوت عال « بعد سبعة ايام » قالت ام العريس « ، هداى عقلى لابنة عبد التواب ، أمها رحمها الله أصيلة وست البنات ، وعبد التواب محترم وزميل المرحوم صحيح اننى لم اكن رأيت سلمى منذ كانت فى السادسة ولكنى كنت اذكر جمالها وعندما أتيت لم يحب ظنى فقد وجدتها كالقمر وانشرح صدرى وتخللتها فى ثوب الزفاف مع سعيد ابنى تقصره بشيرين كأنها فصلت له »

وقالت مديحة بلهجة ساخرة
— وكأن اختنا بدلة او حذاء تفصيل !

فنهرتها شمس وقالت لها ان تفكر فى الكلام قبل ان تنفوه به وقامت الى المطبخ لتصنع شايا أمر الاولاد عجيب يعملون من الحبة قبة ، بشرى تقول انه من الخطأ قبول عريس لايعرف عنه سوى مايقوله الآخرون فكيف نعرفه اذن ؟! وموقف على أعجب فقد خاطب سلمى بحدة وأعلن انه ضد الموضوع وترك البيت ساخطا وخرج سألنا عن العريس فشكروا فيه ورأته سلمى ثلاث مرات فلم تجد مايعيب ، فما الذى يمنع ؟

وفى الليلة التى سمع فيها سكان العمارات المجاورة الزغاريد تتعالى من البيت وألبس سعيد سلمى الخاتم الذهبى فى بنصرها الأيمن واسورة ثمينة من الذهب فى معصمها ، فى تلك الليلة استعصى النوم على شمس كبرت البنات وهامى سلمى تفتح الباب فى الأول ثم تتبعها الأخريات هل يفتحن الباب ليذهبن أم لياتين ؟ لا لا انهم يأتين وسيمتلئ البيت بهن وبأزواجهن وصغارهن وسيداتهن الفرع قلبها كما يداعبه ذلك اللون الاصفر الناعم للكتاكيت التى تربها حين تنقلها كل صباح فى عربة الكرتون الى الشرفة الغارقة فى الشمس زواج الأولاد فرح كررت شمس لنفسها ولكن على كان غاضبا ، لماذا كان غاضبا الى هذا الحد ؟

فكرت في العريس الذى لم يفتح له قلبها ، وكيف يفتح وهى بعد لاتعرفه ١٩
سألوا ولم يقل عنه أحد مايسىء غدا تعتاد عليه فيدخل البيت كأنه واحد من
أبنائها وإن أشقى البنت ؟ قامت من السرير لتشرب وهى تقول لنفسها
« الزواج كالصندوق ولكل في صندوقه نصيب » شربت وعادت الى السرير

قرب الفجر غفت فرأت في المنام أم سلمى ودار بينهما حديث هامس
طويل ، حاولت في الصباح ان تتذكر شيئا منه ولم تفلح قضت النهار وطيف
المرحومة قدرية ماثلا أمام عينيها وفي حلقها غصة وبها رغبة في البكاء ولكنها لم تقل
لأحد شيئا عن ذلك

ثم انشغل الجميع في اعداد سلمى للزواج والبيت لسلمى واحتل الحديث
عن السوق وما وجدوه ومالم يجدوه المساحة الاكبر من الاحاديث المسائية في
الشتين تنزل شمس مع سلمى لاختيار الاقمشة ، أقمشة للثياب ، وأقمشة
لأغطية السرير ، وأقمشة للمفارش وتعودان الى البيت محملتين بما اشترتاه وفي
المساء تهلك شمس في قص ثوب جديد للعروس ، أو تطريز وردة بالخياط الزرقاء
على النسيج الحريري الأبيض لقميص نوم حاكته لها وقد ترك عملها لتشاهد
الأكواب والأطباق التى اشترتها سلمى مع زوجة أبيها ثم تساعد في اعادتها بحرص
الى العلب الكرتونية المحشوة بالقش أو قد تواصل العمل وهى تدلى برأيها في النقاش
الجارى حول تكاليف الجهاز وكيفية الاقتصاد في المشتريات

وعلى مدى عام كامل كانت سلمى ، أثواب سلمى ، عريس سلمى ،
جهاز سلمى ، بيت سلمى هى موضع الاهتمام وشمس ترى البنت متألفة تطير
هنا وهناك كفراشة صغيرة منبهة بالضوء المسلط عليها

وأخيرا حل يوم العرس وجاء عمال الكهرباء ومدوا على واجهة البيت

أسلاكاً بها مصابيح صفراء وخضراء وبنفسجية وزرقاء وحمراء في الأيام السابقة كان كل شيء قد أعد جاءت عمات سلمى من القرية وقمن مع منيرة وشمس والبنات باعداد البيت نظفن السقف والزوايا بفرشاة خشنة لها يد خشبية طويلة ، نفضن الابسطة بمضرب من الخيزران ، غسلن النوافذ وسوترها الخشبية بالماء والصابون ، لمعن الزجاج بأوراق الجرائد القديمة ، حككن الأرض بفرش السلك القوية ، كلفن الرجال بشراء مايلزم من زجاجات الشراب وعلب الحلوى وتأجير مايكفى من كراسى للمدعوين وأعدت شمس قطعة عجين من السكر والليمون وأزالت لسلمى الشعر عن ساقها وذراعيها وتحت إبطيها وأسفل بطنها وساد البيت ضوضاء وهرج احتفالي الكل يصعد ويهبط ويدخل ويخرج ويروح ويجيء ، الكبار يعلو صوتهم على الصغار والصغار متوقدون يركضون هنا وهناك بضرورة وبغير ضرورة

وحين تعالت الزغاريد في البيت عرفت شمس ان العريس وأعمامه والمأذون وصلوا وملأها الازتياع لأن كل شيء حاضر ومعد ، سلمى أكملت زيتنها وهى الآن تقف أمام المصور الذى يلتقط لها صوراً مع عماتها وزوجة أبيها والبنات ينادين على شمس فتقف بينهن ، يضغط المصور على زر آلتة السوداء ، يلتمع ضوء ثم ينفرطن وهن يضحكن

وتبدو سلمى جميلة كالعرائس في صور المجلات الملونة تلبس الابيض الطويل الذى حاكنه لها شمس وتجملت على غير عادتها بالمساحيق وزينت العينين بالكحل ، والجفنين بظل أخضر خفيف والرموش بمحلول تجميل أسود والشفتين بالأحمر وكذا الأظافر وشعرها الكستنائى الذى اعتادت ربطه خلف أذنيها بشرط دقيق محلول يلامس الكتفين ووضعت على رأسها اكليلا من الورود الصناعية الصغيرة البيضاء ينزل منه خمار ابيض شفاف يصل الى منتصف

ظهرها « إنها فعلاً جميلة » قال شمس وفكرت في المرحومة قدريّة التي حُرمت من رؤية ابنتها وهى عروس تنهدت وملأت الدموع عينها « حكمة ربنا »

أقبلت إحدى الصغيرات مندفعة كقذيفة تكرر « انهم وصلوا » وقبل ان تستوضحها شمس من هم الذين وصلوا كان الرجال يملأون حجرة النوم ، أبو سلمى وأعمامها وأخوالها جاءوا يسألونها من توكل قالت انها توكل اباها الذى ضحك فخورا بابنته وقال « لا يصح مادام عمك الكبير حاضرا » فسألها عمها ان كانت تقبل سعيذا زوجا فقالت انها تقبل تعالت الزغاريد واقبلت العمات على العروس يحتضنها ويقبلنها واعترضت منيرة قائلة ان ذلك سيفسد زينة البنت ورأت شمس ان العمات تضايقن للملاحظة فقالت مازحة

— أما أنا فسأطبع على وجه سلمى اثنتين وعشرين قبلة ، واحدة عن كل سنة أحببتها فيها

فقالت مديحة وهى تضحك

— هاتى يابشرى الختامة لكى تطبع أملك علامات المحبة

وضحككن جميعا وسألت بشرى عن على فقالت شمس انه يجلس مع الرجال

ثم جاء العريس وقبل العروس على وجنتيها ، ضحكت البنات ، وابتمت شمس وشعرت بالدم يصعد الى رأسها كأن القبلة طبعت على وجنتيها هى ، وتهايمت العمات ، وأخذ العريس عروسه وسط الزغاريد الى الطابق الثانى حيث شقة عبد النواب ومنيرة وحيث ينتظر المدعوون والمقعدان الأخضران الكبيران اللذان استؤجرا خصيصا للمناسبة

أوغل الليل واعتمت نوافذ العمارات المجاورة وبقي البيت مضاء بعقود

المصاييح الملونة ينبعث منه ضجيج العرس وغناء النسوة المتقطع على ايقاع طبلية بلدية ، ثم انتقلت الضجة الى الشارع وعلت الزغاريد وطرقت أبواب السيارات واكتظ مدخل البيت بالمدعوين وانطلقت سيارة بالعروسين الى بيتهما

وفي تلك الليلة ايضا استعصى النوم على شمس كانت مرهقة بفعل جهد الأيام السابقة ، يؤلمها ظهرها وقدمها ، ثم ان رؤيتها لسلمى تغادر البيت كان قاسيا كانت في ثوب الزفاف الايض تُفرح القلب ، ولكنها ذهبت مالت شمس على العريس وهمست في أذنه « سلمى ابنتى ، أرضعتها وريتها ، ماتت أمها ، صحيح ، ولكنها ابنتى لن اوصيك ! » ثم احتضنت سلمى وتركت الجميع يقفون بباب العمارة ودخلت ، كان ذلك اكثر مما تحتمل اليوم ذهبت سلمى وغدا تلحق بها بشرى ثم امينة ومديحة والأولاد ايضا هل صحيح يأتون أم انهم كالأفراخ حين تقوى اجنحتها تطير فتضم هي جناحها على لاشيء ؟ قدمها تؤلمها وفي ظهرها برودة ، تحكم الغطاء حول نفسها سألتها سلمى عن على فخرجت ولم تستطع ان تخبرها بأنه رفض حضور العرس ماالذى اصاب هذا الولد جُن ؟ هل يريد لها لنفسه ؟ باغتها السؤال ، كلام فارغ ! هذا هو الوسواس الخناس بعينه غير صحيح وغير ممكن ! انه اخوها أرضعتها كما ارضعته فكيف ؟! كل مافى الامر انه طيب القلب يصعب عليه خروجها من البيت وهو لايعرف العريس ، انه قلق ، مثل بشرى ، هي ايضا كان وجهها شاحبا بعض الشيء ، انه قلق ، كررت ، هذا كل مافى الامر وان كان يريد لها ؟!



٣

الطوق

من يطرق الباب هكذا ؟ تركت شمس الصحن التي كانت
تغسلها مغطاة برغوة الصابون وشطفت يديها وأسرعت وهي تجففها لفتح
الباب كانت منيرة ممتعة الوجه

- خيرا ؟
- سيد عاد من الجامعة ويقول ان العسكر يطوقونها ولا يسمحون لأحد
بالدخول وسمع ان الطلبة الذين كانوا بالداخل اعتقلوا
- يامصيتى وأين سيد ؟
- سألت شمس ولكنها كانت تفكر في على .

- ذهب يخبر أصدقاءه وقد أكدت عليه ألا يقترب من الجامعة حتى لايمسكوه !
- أتت شمس بجورها وفردت حذائها وشرعت فى ارتدائهما سألها منيرة
- ماذا ستفعلن ؟
- على الأقل أحاول معرفة ماذا حدث واستفسر عن مكان الأولاد
- هل آتى معك ؟
- لا داعى

قالتا شمس وهى تهول الى الشارع وتفكر ان على يزج بنفسه فى المشاكل ، هو طيب القلب صحيح ولكنه مندفع وحاد الطبع ...لماذا يمسكون بهم ؟ سترك يارب ! كانت تتصب عرقا رغم برودة يناير مسحت وجهها بالمنديل وهى تتابع الطريق من نافذة الأوتوبيس حتى لاتفوتها محطة الجامعة

عبر الاتوبيس كوبرى الجامعة ولكنه لم يكمل طريقه المعتاد بل انحرف يمينا وقال السائق ان الطريق مغلقة توقف فنزلت سارت فى اتجاه تمثال نهضة مصر ثم تجاوزته بخطى سريعة تقصد الجامعة فى نهاية الطريق التى كادت تخلو من المارة حين بدت لها القبة وبرج الساعة كانت ايضا ترى ان هناك حشدا من البشر أمام السور غدت الخطو ولم تكن الآن تفكر سوى فى الوصول . لم يكونوا طلابا بل عسكري حائط من العسكر مئات الخوذات الرصاصية المتلاصقة ، مئات الأحذية السوداء الثقيلة ، الزى الكاكي الواحد والدروع والبرارات وشمس تواصل التقدم اليهم يخفق قلبها ، تسمعه ، وتواصل مالىذى فعلوه فى الأولاد ؟ تقترب

- ممنوع ياست !
- ابنى فى الجامعة .

- الجامعة مغلقة !
- لكن ابني بالداخل

تحرك حذاء أسود للأمام خطوة وارتفعت يد تلوح مهددة بهراوة

— اقصرى الشر واذهبي يا امرأة !

استدارت في صمت وعادت ادراجها في اتجاه التمثال في حلقها غصة تمتد الى صدرها فتقبضه يقفون كالحائط فماذا تفعل ؟ كانت خائفة ، ليس منهم ولكن على على والأولاد عندما وصلت الى التمثال انحرفت يسارا وسارت بمحاذاة مشتل الزهور عند الطرف الشرقى لحديقة الأورمان « سأصل الجامعة من الناحية الأخرى » قالت « ولو منعوني ؟ » تنهدت وواصلت في الشارع الجانبى الضيق رأت سيارات الجيش التى تنتظر والجنود الذين يجلسون داخلها أخذت تحصى السيارات « هل هى حرب ؟! » « تساءلت باستنكار ومسحت العرق عن وجهها وعنقها » ، ولو منعوني ؟ فكرت « سأقول لهم اننى موظفة موظفة بالادارة » « ولو سألونى ؟ » أبطأت الخطو وهى تجتهد فى إيجاد رد

عند التقاطع واجهها نفس الحائط من الخوذات والدروع والأحذية الثقيلة

- ممنوع ياست الجامعة مغلقة !
- ولكنى أعمل فى الجامعة أنا الممرضة فى العيادة
- لاعمل الآن فى الجامعة الجامعة مغلقة !
- سأقبض راتبى العيد كما تعلم بعد يومين والقبض هذا الشهر مبكر
- انتظرى

ترك العسكرية مكانه وذهب ليستفسر كيف جاءت هذه الفكرة ؟

كيف كذبت بكل هذه الثقة ؟ تنهدت « الله كريم ! » عاد العسكرى واضطربت مساحة ضيقة من كتلة الأجساد المتراسة امامها افسحوا لها طريقا كأنه باب ضيق انفتح في الحائط المدرع مرت وعاد كما كان وتقدمت شمس بعد ان اصبحت وحدها داخل الساحة المطوقة بالجنود

دخلت الى الحرم الجامعى من بوابة صغيرة ملاصقة للبوابة الحديدية الكبيرة التى كانت مغلقة لم تدخل المكان ابدا من قبل ولكنها كانت تراه حين تمر أمامه بالاتوبيس غارقا فى الشمس تملؤه ضجة الطلاب داخل السور وخارجه أولاد وبنات يرتدون ملابس من كل نوع ولون يروحون ويحيئون او يتحدثون وهم واقفون او يضحكون على خلفية من المباني العتيقة ذات الطابقيين والقاعة المقبية وبرج الساعة تراهم فتبدو لها الجامعة حديقة كبيرة يقضى فيها الأولاد والبنات وقتا طيبا ويصعب عليها تحليلهم فى قاعات الدرس التى لم ترها الا مرة واحدة فى فيلم سينمائى كان البطل والبطله طالبين جلسا فى القاعة متجاورين وراحا يتهامسان وكان آخرون يضحكون ضحكا مكتوما لكيلا يسمعهما الأستاذ المنشغل بالشرح

طافت بعينها فى المكان فكادت تنكره فلا شمس فيه ولا بشر وكأنها تحت هذه السماء الغائمة تقف وحدها فى مقبرة بلدتهم ساعة الغسق فما العمل ؟ لحت شابا نحىلا يخرج من أحد المباني ويهبط السلام القليلة الفاصلة بين الباب والأرض ركضت ناحيته ، التفتة فى منتصف الطريق سأله لاهثة — هل أنت طالب هنا ؟

بتحفظ أجابها

— أنا موظف بالادارة ، الجامعة مغلقة !

لو لم تسأله قد لاتجد سواه ، ثم انه فى سن الأولاد ، ستسأله مرة اخرى :

— ابنى كان فى الاعتصام ولا أدري ماذا حدث ؟

- لا يجيب ويبدو وكأنه سوف يدير لها ظهره ويمضى ماذا لو ذهب الآن ؟ عيناها
معلقتان بوجهه
- قوات الأمن دخلت الجامعة في الفجر وألقت القبض على كل الأولاد والبنات
الذين كانوا هنا وأخذتهم
- أين ؟
- لا أعرف !

تركها وابتعد واحست شمس بساقها لانتقويان على حملها فمنذ أتاها
الخبر وهى لاتصدقها تماما كانت تأمل ان يكون الاولاد معاقبين داخل الجامعة
ما العمل الآن ؟ ظلت واقفة فى مكانها لعلها تجد شخصا آخر تسأله دقت
الساعة ثم عادت فدقت ولما دقت للمرة الثالثة سارت ببطء فى اتجاه البوابة

ليس حائطا بل طوق فكرت شمس وهى تتابع ببصرها العدد الهائل من
القوات الذى لايتهى باتهاء مباني الجامعة الى يمينها وإلى يسارها لم تر فى حياتها
كل هذا العدد من العسكر كأنها حرب ! واصلت السير حتى وصلت
أفسحوا لها مكانا للمرور ولاحظت وهى تمشى بمحاذاة الجنود وقد اصبحت الآن
خارج الطوق انهم جميعا صغار ، ربما كانوا دون العشرين وجوههم بنية أحرقها
الشمس ، وملابسهم الكاكية كالحة والأجسام المتراصة التى بدت لهم عن بعد
منتصبة ومتخشبة بها ارتخاء المتعب ما الذى بينهم وبين الأولاد ؟ كادت تسألهم
ولكنها لم تفعل واستمرت لم تتوقف لتتركب الاتوبيس ستكمل الطريق سيرا الى
البيت ما العمل ؟ لو أن أبا الأولاد حى لنورها وأشار عليها ! لو ان بشرى فى
القاهرة هل تبق لها بالحضور ؟ ستفرعها بلا داع وقد يعود على إلى البيت
قبلها لاتدرى ما الذى اصاب هذه البنت تزداد كل يوم نحولا كأنها تحمل هما
بعد يومين تعود لقضاء العيد معهم سيعود على قبل ذلك ان شاء الله سيعود
قبل ذلك . حين وصلت الى نهاية الجسر فى المنيل كان صوت المؤذن يتردد فى

المكان عبر مكبرات الصوت المثبتة في مقذنة المسجد المجاور فاستبشرت خيرا
« انه آذان الظهر » فكرت وهى تتمهل فى خطوها وتتمتع « عزيز الله أعظم
والعزة لله »

وكررت شمس ذات العبارة وهى تقف فى الشرفة حين سمعت آذان العصر
وكانت فى انتظار عودة على او حتى سيد لعله يحمل اخبارا منذ وصلت البيت
وهى توبخ نفسها لأنها لم تلح فى سؤال ذلك الشاب عن مكان الأولاد كان
يجب ايضا ان تستفسر من العساكر ربما قال احدهم شيئا هل أخذوهم الى
السجن ؟ وأى سجن ؟ لحت سيد وهو يدخل الشارع فتحت الباب ووقفت
تنتظر على الدرج ثم نفذ صبرها اسرعت لتلتقى به امام البوابة صعد معها وكاد
يجلس على اول مقعد فى طريقه ولكنها قالت له انه من الافضل ان يقفا فى الشرفة
حتى يلمحا على لعله يعود الآن

قال سيد بصوت خافت وكأنه يعترف بذنب
— خالى ، أمينة أختى كانت ايضا فى الاعتصام ولكنها قالت لأمى انها ستقيم
عدة ايام عند صديقة لها للمذاكرة
— وأمينة ايضا ؟

سأته شمس فى لهفة وكأن هناك احتمال ان يعيد النظر فيما قاله فلما أكد
لها الامر انفجرت فيه موبخة
— وانت الاكبر ، وانت اخوها كان يجب ان ترشدها بدلا من المداواة عليها
ترجون بانفسكم فى المشاكل ولا تفكرون فىنا أبدا سيقم ابوك الدنيا
ويقعدها ولن الومه !

ولكنها نزلت معه لتساعده فى نقل الخبر الى أبيه وامه ، تركت باب الشقة

مفتوحا » حتى يعرف على ان عاد انتى فى البيت »

وكما توقعت فقد اقام عبد التواب الدنيا وقال انه آخر زمن تسجن فيه البنات مع العاهرات قال « ومن يدرى قد يتحولن الى عاهرات فى نهاية المطاف ، ألا يكذبن على أهلهن وينمن فى نفس القاعة مع الشباب فى الجامعة ! » وكان وجهه محترقا وهو يضرب كفا بكف ومنيرة تبكى كأنها المسئولة ولا تقول شيئا وتدخلت شمس

— وحّد الله يا عبد التواب ، أمينة عاقلة وست البنات لقد أخطأت حين كذبت عليكم ، صحيح ، ولكنها لم تذهب الى مكان بطلال كانت فى الجامعة تشاكس الحكومة ومن يدرى لعلها كانت تتفرج فأخذوها مع الآخرين

ولكن عبد التواب لم يكن ينصت كان يكرر انه آخر زمن وان البنات فجرن ويقول لمنيرة انها فشلت فى تربية بناتها ثم التفت الى سيد كأنه تذكر فجأة انه موجود وصفعه على وجهه وهو يصرخ

— يا ابن الكلب انت السبب ! تركت اختك تنام فى الجامعة بين الشباب وانا اقول صار سيد رجلا ، تفوه على هذه الحلقة من الرجال

وبصق على الارض وفوجئت شمس كما فوجئ عبد التواب ومنيرة وسيدة بمديحة التى مازالت فى الثانوى تقول لأبيها

— أنت مخطيء يا بابا لا داعى لكل هذا المهرجان أمينة اختى لم تكن بملهى سيء السمعة كانت فى الجامعة تناضل من اجل مستقبل البلد

وسقط كلامها كشرارة على برمىل البارود الذى كانه عبد التواب فانفجر

والقى بنفسه عليها يريد ضربها وهو يزأر بكلمات غير مفهومة وحاولت شمس ان تقف بينهما فأزاحها عن طريقه واختلط صراخه بصراخ مديحة ببيكاء منيرة وضاعت كلمات شمس وسيد ثم هدأ الجميع وساد الصمت

النوم فى العسل

□ □ انسحبت الكآبة على البيت كسماء غائمة تطبع المدينة بخاتمها الرمادى الكاى كان الأمر يفوق قدرتهم جميعا على الفهم فالسجن بالنسبة لهم لم يكن سوى المكان الذى يُرج فيه بالقتلة واللصوص والخارجين على القانون العادل فكيف لهم ان يربطوا بين الولد على والبنت امينة والسجن ؟ وزاد من ارتباطهم ظهور رئيس الجمهورية على شاشة التليفزيون بزي عسكري موشى تزينه عشرات الاوسمة وهجومه العنيف على الاولاد كان الرجل يفتح فمه وهو يضغط على مخارج الالفاظ ثم يطبقه فحاةً ويزم شفثيه فتتشابك الخطوط على جبينه المقطب وتبحظ عيناه وبشكل مبالغت يسقط فكه الأسفل كأنه دمية خشبية تحركها الخيوط ويتلع فمه المفتوح ثلثى وجهه وعلقت منيرة باستهجان

— كبير وقد الدنيا ويعمل عقله بعقل الأولاد !

وضحكت مديحة ساخرة

— لقد فقد رئيس الجمهورية عقله يأمى !

ولم تقل شمس شيئا لم تفهم هذا الرجل ذا الهيئة الغريبة ولا الكلام الذى قاله كما لم تفهم حبس الأولاد وزادها ارتباطا أن بشرى منذ عودتها منكشمة

وبعيدة صحيح ان البنت لم تكن فى أى وقت كثيرة الكلام تميل بطبعها للهدوء
ولكن ليس الى هذا الحد « ما بك ؟ » سألتها فى الليلة السابقة « لاشئ ! »
أجابت هل هو القلق على أختها !

وكما غسلت شمس وجهها مرتين ودلكت جفניה فى الحمام حتى لايلحظ
أحد انها كانت تبكى صباح يوم العيد فقد ارتدت احلى ملابسها فى اليوم التالى
وقالت لبشرى ومديحة انها مستعدة للذهاب الى سلمى ورغم ذلك كادت نفسها
تخذلها وهى تصفف شعرها أمام المرأة حين رأت نفسها فى كامل زينتها وكأنها فعلا
فرحة بالعيد امتلأت عيناها بالدموع وأحست بغصة فى الحلق ولكن ماذنب
سلمى !؟ تمخطت ونادت على البنتين للنزول

لم يكن بيت العروسين بعيدا ، ذهبن سيرا عبرن الشارع العام المزدهم
بالسيارات ثم مشين فى شارع جانبي حتى وصلن الى النهر وكانت سلمى تسكن
عمارة جديدة تطل عليه

خطت شمس الى عتبة العمارة بقدمها اليمنى وتمنت أن يعود على « هذا
المساء » ثم استدركت « الآن نعود فنجده بانتظارنا » ولم تكن المرة الأولى
التي تدخل فيها البيت ولكنها قالت لنفسها « العمارة جديدة وربنا
سميع ! » وتمت

صعدن الى الطابق الثالث وضغطت مديحة على زر الجرس فأحدث صوتا
منعما كاللوسيقى فتح العريس وكان لاما ومعطرًا ولاحظت بشرى ان سلمى
بعد مصافحتهن جلست ملاصقة لأمها وان وجهها واذنيها إحمرّوا عندما سألتها
شمس ان كانت بخير .

ولم تكن سلمى ولا عريسها يعلمان شيئاً عما حدث في الجامعة عقلت
مديحة باندفاع ساخر أخرج شمس

— صبح النوم ! منذ ثلاثة أيام والبلد مقلوبة أخرجت الحكومة الطلبة
المتصمين في الجامعة بقوة الشرطة واعتقلتهم قامت مظاهرات في وسط
البلد وقوات الأمن فرقت الناس بالعصى والقنابل المسيلة للدموع وحشت
سياراتها بمعتقلين جدد وأصدر وزير الداخلية بياناً قال فيه ان الامر
شغب قامت به قوى مندسة وعميلة ورئيس الجمهورية تحدث في التلفزيون
وكل الجرائد نشرت صورته وفمه مفتوح كالمغارة وأنتم نائمين في العسل !

فاجأهن العريس بضحكة عالية راضية عن النفس وقال وهو يضغط على
مخارج الألفاظ كأنه مدرس في فصل لمحو الأمية

— نحن عروسان يامديحة !

وضحك مرة أخرى وسقطت ضحكته على شمس كانسكاب كمية
غير متوقعة من الماء البارد على رأسها وقالت بشرى وهي تقوم من مقعدها انها
هى التى ستصنع الشاى ولحقت بها مديحة قائلة انها ستساعدها

توقفت بشرى أمام باب حجرة النوم وقد لاحظت غطاء السرير الصوفى
راحت تتأمله وتفكر فى قدرة أمها على صنع الأشياء الجميلة كان المفروش مشغولا
من خيوط الصوف الأبيض والأزرق التى تتشابك وتلتف مكونة وحدات تتكرر
لورود بيضاء على خلفية من الأزرق السماوى

دخلت مديحة الى الحجرة فجذبته بشرى من يدها وهى تقول ان ذلك غير

- طبعاً غير مناسب ، بل جارح ، بكل المقاييس الفنية وغير الفنية !
— عَمَّ تتحدثين ؟

سألته بشرى وقد أدركت انهما يتحدثان عن موضوعين مختلفين فأشارت
مديحة الى لوحة معلقة فوق السرير ، صورة لامرأة عارية كبيرة الثديين والردفين
مضطجعة بشكل يبرز عريها

— انها فعلاً رديئة !

قالت بشرى وهى تشعر بالحرج وتدفع بمديحة فى اتجاه المطبخ لعمل
الشاي
— أقسم بالله العظيم لو اننى مكان سلمى لغادرت البيت غير آسفة بسبب
هذه اللوحة !

كانت مديحة نائرة ضحكت بشرى وهى تشعل الموقد وتقول ان البيوت
لا تتقوض بسبب لوحة

لحقتهما بهما سلمى فى المطبخ راحت تعد صينية الشاي وهى تعتب على
اختها لأنها لم تخبرها بما كان من امر على وأمينة صبت بشرى الشاي فى
الفناجين وحملتها مديحة الى الصالون

ورغم ان سلمى قصدت ان تطلب من اختها ان تذهب هى بالشاي الا
انها بعد ذلك لم تجد ما تقول وسألت نفسها ان كانت هذه المساحة من

الصمت هى مساحة من الحرج جديدة فى علاقتها بصديقتها ككل تلك
المستجدات الأخرى فى حياتها أربكها السؤال وعقد لسانها

كذلك بشرى لم تقل شيئا الا بعد دقائق قالت وهى تحيط كتف
صديقتها بذراعها وتسير بجوارها الى الصالون « تعالى نشرب الشاى »

كانت مديحة تحرك السكر فى الشاى وهى تقول بحماس ان الطلبة يطالبون
بالديموقراطية وبالاصلاح الاقتصادى والاستعداد الجدى لمواجهة الاحتلال
الاسرائيلى لسيناء. وعلق سعيد على ذلك وهو يقدم فنجان الشاى الى
شمس « كلام فارغ ! »

شربوا الشاى فى صمت وفى نهاية الزيارة وهن على وشك الخروج
صافح سعيد شمس مرة أخرى وابقى يديها بين يديه وهو يقول

— إطمئنى ياست شمس الحكومة لن تؤذى الأولاد وهى تعرف تماما انهم ليسوا
سوى اطفال متهورين يجهلون مصالحهم المهم عليكم عندما يخرجون
بالسلامة ان توخوهم حتى لايعودوا الى مثل تلك الاعمال الطائشة

وشعرت شمس عندما سمعت باب الشقة يطرق — وكانت تعبر بوابة
العمارة الى الشارع مستندة الى ذراع بشرى — انها حزينة وفسرت ذلك
بأنه يصعب على الأم دائما ان تترك ابنتها وراءها مع رجل غريب ثم عابت
نفسها على الفكرة إنه زوجها ، فكيف يكون غريبا ؟!

لم تقل شمس شيئا طوال الطريق الى البيت وكذلك بشرى وبقيت
مديحة صامئة ايضا حتى اشرفن على الوصول فقالت

— لو كان على كبرا لاستمعنا لرأيه .. لقد كان رأيه صائبا ! ثم لم تفتح فمها
ثانية .

آلام بشرى

يوصل القطار رحلته ، يطوى مساحات الاخضر المزروع وبشرى
تساءل كيف بهذه السرعة صار ذلك المبنى الصغير وجودا كابوسيا
يقبض القلب كالمقابر ؟ تتساءل انكماشاً في مقعدها ويدور
وكأن القطار واهتزازة الرتيب وصفيره المباغت حمل على صدرها

تقوم من مقعدها ، تستند يديها الى مقاعد الركاب خشية السقوط من
اهتزاز القطار المسرع تمر بعدد من التلميذات ، البعض منهن يمس أعواد قصب
السكر ، والبعض الآخر يغنى على ايقاع طبلية بلدية .

سألت

— رحلة « اعرف بلادك »

أجابت احدها ثم عادت لمشاركة زميلاتها الغناء واصلت بشرى الى عربات الدرجة الثالثة لتدخل دورة المياه في نهايتها عبرت بصعوبة من الممر الفاصل بين المقاعد الخشبية والمزدحم بالسلال والامتنعة والمسافرين الجالسين على الأرض طالعنها نفس الرائحة واجتهدت كما في كل مرة ان تحدد ماهيتها رائحة عرق انساني ؟ رائحة الأرض والسماد وروث البهائم ؟ رائحة الحليب ام رائحة الحلبة في البتاو ؟ رائحة نفاذة تميز المكان تماما كما تميزه الوجوه البنية المعروفة للركاب وتلك المرأة الكبيرة التي تفترش الأرض بثوبها الأسود الفضفاض وتضع على فخذيها طفلا نائما وابتمت بشرى وهي تتوقف عند ملاحظتها بأنه هناك دائما امرأة كبيرة هناك طبعاً أخريات ، يفترشن الأرض ، ويغفين وهن جلوس ، ويقطعن الوقت بالثرثرة ويقسمن القرص ولكن هناك دائما ، أصرت بشرى ، امرأة كبيرة تسم المكان وتميزه كتلك الرائحة التي تفشل في تحديد ماهيتها

تعود الى مقعدها فيعود لها السؤال كيف بهذه السرعة ؟ وكأن الرحلة ليست هي الرحلة ولا القطار هو القطار الذي حملها للمرة الأولى الى مقر عملها ، المبنى الاصفر الذي يضم المدرسة ضمن المنافع الاخرى للوحدة الجمعة

وقفت امام مبنى عتيق تشققت أخشابه وتساقط طلاؤه بشيء من وجل ، طرقت ثم دخلت . قامت المرأة من خلف مكتبها لمصافحتها وجه أبيض

مستدير وجسد ممتلىء وشعر مصبوغ بالحناء وحاجبان رفيعان مقوسان كأنهما
خُطَا بقلم ، ونظرة فاحصة في العينين المكتحلتين أريكتها دعها الناظرة للجلوس
فجلست دقت جرسا فدخلت امرأة نخيلة سمراء

— أسألى الست بشرى ماذا تشرب يأم خليل ونادى على « الستات »

— حاضر ياست الناظرة

ثم أنت « الستات » سنية التى تلبس الباروكة وتوصلها الى منتصف
جبهتها وعلية التى لاتلبسها وتترك شعرها مشعثا بشكل ملفت بعدها أنت
« الدكتورة » لتناول القهوة والدردشة ممتلئة الوجه والصدر والأرداف تماما
كالناظرة وشعرها مثلها ايضا مصبوغ بالحناء ولها نفس العينين المكتحلتين
والنظرة الفاحصة

« لابد انهما توأم » فكرت بشرى ساعتها ، ومازالت تستغرب هذا التشابه
الشديد بين امرأتين لاتربطهما صلة دم

قالت الناظرة وهى تضحك عرفت كل شئ وتعرفت بالجميع وإن شاء
الله تستريحى معنا ونستريح معك

— والتلميذات ؟

تنهدت بشرى وهى تفكر انها وحدها ، وحدها كما لم تكن فى أى وقت
مضى كادت تحدث أمها ثم أحجمت فماذا تقول ؟ وعلى محبوس مع باقى
الطلبة ، وسلمى غارقة فى غسل لزوج لاتعرف كيف ستخلص منه . حين

عادت الى القاهرة هذه المرة كانت تنوى ان تتحدث معها ، تحكى لها عن الصغيرات اللأى يقطعن الطريق الطويلة الى المدرسة سيرا لكيلا يتعلمن شيئا ، وحشد النساء اللأى يفترشن الأرض مع صغارهن وتمر عليهن الساعات فى انتظار « الست الدكتوراة » التى تكون مع شبيبتها تشرب القهوة وتنتظر خروج الست سنية من درسها لكي تقرأ لها الفجنان ، والمكتبة المغلقة لأن الكتب عُهدة ، والمشغل المتوقف أرادت أن تحكى لها عن هذه الأمور وسواها ولكنها انشغلت بموضوع على وامينة وحين التقتا وقفنا صامتتين كأنهما ليستا بشرى وسلمى اللتين عاشتا طفولتهما معا واكتشفنا الف شىء سويا وتضاربنا واختلقتا اسبابا للصلح بعد دقائق وتهاستا بأشياءهما الصغيرة مليون مرة فلمن تحكى اذن ؟ واين تذهب بتلك المرارة التى تملأ فمها ثم تشعر بها تنزل فتعصر معدتها أم أن المرارة تأتى من معدتها المنقبضة وتستتب فى الفم ؟

ييطىء القطار ثم يتوقف فى محطة أطفال نحاف يقربون من نوافذه قفزا ليبيعوا بضاعتهم البنات الذهابيات فى رحلة « اعرف بلادك » يشترين فى صخب وتلاحظ بشرى ان عيون الاطفال السوداء الواسعة تبرزها نخافة الوجوه وتلاحظ ايضا ان احدهم ينتعل حذاء ، وتفكر انها سوف تصل الى البلدة التى تعمل بها بعد نصف ساعة

توقف القطار نزلت وركبت سيارة أجرة بالنفر حملتها مع آخرين الى البلدة ثم حملت حقيبتها الصغيرة وسارت باتجاه المسكن

وفى الليل حين آوت بشرى الى فراشها وجدت نفسها تستعيد ماشاهدته على مدى الشهرين اللذين عملت فيهما ، يختلط فى ذهنها المشهد اليومى لشرب القهوة والثرثرة بالوسادة الرصاصية التى بحجرة الكشف بالنظرة الفاحصة فى عيون الشبهيتين والحواجب المنتوفة بعناية ولما راحت فى النوم

رأت نفسها تقف وراء باب الوحدة وكان الباب مواربا يسمح لها بأن ترى ولا يسمح لهم بأن يدخلوا وكانوا يقفون في صف طويل يتعرج حتى خط الأفق يختفى فيه ولا ينتهى انضغطت الوجوه تحت وطأة الأوجاع والتوت الملامح وجحظت العيون النساء في ثوبهن الفلاحي نحيلات كالأعواد منتفخات البطون رغم ذلك ، يحملن على أكتافهن وجنوبهن وأذرعهن صغارا منتفخي البطون الرجال في الجلابيب القطنية الزرقاء يتحركون مع النساء في ايقاع منتظم كأنهم يدفعون الباب بغية الدخول ويصدرون أصواتا كأصوات الصيادين ساعة جذب الشباك همهمة جماعية كأنها أنين أو حشرة أو لفظ محتج ، وهى وراء الباب الذى يسمح لها بأن ترى ولا يسمح لهم بالدخول

واقعة البامية

□ □ حين طرقت أم خليل الباب ودخلت كانت بشرى منهمكة في الدرس ، كانت تتحدث عن تصور المصريين القدماء لفكرة العقاب والثواب في الحياة الأخرى

« وبعد ان يعبر الميت الارض الفاصلة بين عالم الاحياء وعالم الاموات يتوجه الى قاعة المحاكمة وما ان يدخلها حتى ينحنى ويقبل عتبها هنا في هذه القاعة الفسيحة المزدهمة بالقضاة والآلهة نحاسب كل نفس على ماقدمت هنا — وضعت علامة بيضاء في أقصى يمين اللوح الأسود — يجلس أوزيريس على العرش الالهى وجهه مغطى بالأخضر علامة الخصب والتماء وجسده ملتف بثوب ضيق أبيض علامة الصلاح والاستقامة .

وفى القاعة اثنان واربعون قاضيا على الميت ان يتوجه اليهم مدافعا عن نفسه ، مثبتا لبراءته ، مؤكدا طهر روحه من كل شر وبعد ان ينتهى من ذلك يتقدم الى صدر القاعة حيث نصب الميزان — رسمته على اللوح — ميزان هائل يحيط به الآلهة إلهة العدالة وإله الحكمة الذى يحمل لوحة ويسجل عليه وقائع المحاكمة ، وإله الموتى الذى يركع تحت الميزان ويتأكد من سلامته »

ساعتها دخلت أم خليل واقتربت منها وسألتها بصوت هامس

— ست بشرى ، لو سمحت ، عندك فى البيت سكاكين ؟

— سكاكين ؟!

— نعم ، أصل لأمواخذة الست سنية غائبة ، والست النازرة قالت بدل مالبينات تقعد من غير عمل تتسلى بتنظيف بعض الخضروات

ولم تنتظر بشرى لتسمع باقى الكلام هرولت الى الصف الثانى الاعدادى حيث كانت البنات لم تكن ام خليل قد فقدت عقلها رأت بشرى ذلك بعينها كل ثلاث بنات يجلسن متجاورات وقد فردن أمامهن صفحتى جريدة مفتوحتين ووضعن أمامهن الخضروات ، بامية وكوسة وفاصوليه وكان البعض قد بدأ فعلا والبعض الآخر ينتظر السكاكين !

اندفعت بشرى الى الغرفة المجاورة وفتحت الباب لتجد نفسها فى مواجهة النازرة والدكتورة اللتين كانتا تحنسيان القهوة .

— خير ياست بشرى ؟

— البامية !

— البامية ؟ أية بامية سلامة عقلك ؟

— البنات يجئن الى المدرسة للتعلم ام لتقميع البامية !؟
وكان صوتها الآن حادا وعاليا

ضحكت الناظرة ضحكة مغناجة وقالت الطيبة وهى تبسم

— اجلسى واهدنى يظهر انك متعبة من سفر الامس

والله انى تصورت ان فيه مشكلة

اعتدلت الناظرة فى جلستها وقالت بصوت شديد الجدية والسلطة

— المست سنية غائبة وبدلا من ان يضيع اليوم على البنات قلت كأنها حصة
تدير منزلى

— والخضار لمن ان شاء الله !؟

قالت بشرى بمرارة

علا صوت الناظرة

— هل نترك البنات بلا عمل ؟ هل هى فوضى !؟

— اعطى البنات حصّة اضافى

— من ؟

— أنت !

— أنا مشغولة ، عندى مهام إدارية !

— هناك المكتبة

— مغلقة !

— افتحها

— ليست من اختصاصى امينها موجود يغلّقها او يفتحها المكتبة تابعة للوحدة المجمعّة ليست مسئوليتى !

خرجت بشرى من الحجرة وطرقت الباب وراءها عادت الى الفصل وطلبت من التلميذات ان يفتحن كتاب الجغرافيا ويتدرّبن على رسم خرائط الدرس السادس

وما ان انتهت الحصّة حتى خرجت لتبحث عن أمين المكتبة ولكنه لم يكن موجودا

ولما عادت الى البيت جلست على اول مقعد صادفته وظلت جالسة عليه

حتى الليل لم تغسل وجهها ، لم تذهب الى الحمام ، لم تأكل وكان الغضب الذى ملأها بالرغبة فى العراك والتشابك بالألفاظ والأيدى قد انحسر وحل محله إحساس بالكآبة والحيرة

أمسكت قلما وكتبت رسالة الى سلمى

أشعر بالضيق واطرح اسئلة تربكنى ولا أجد من أتواصل معه أفكر فى حمل حقيبتى والعودة الى أمى وأسأل نفسى ان كان قرار كهذا يعنى الحرب أم انه يكون سلوكا واقعيا يعترف بحقيقة اننى وحدى غير قادرة على مواجهة الاوضاع المتردية التى تحيط بى لأننى ببساطة لا أعرف كيف ومن أين
محبتى

بشرى

بعد أسبوع استلمت رد سلمى على رسالتها

بشرى ،

هل أنت الآن أفضل ؟ لابد ان نلتقى أشعر بضرورة ذلك وأشعر ايضا انه ليس لدى أى نصيحة جاهزة تساعدك على مواجهة مشكلتك

هل يحزنك ان تعرفى اننى ايضا اشعر بالضيق والوحدة ؟ كثيرا ما أتساءل ما الذى اتى بى الى هنا قبل يومين استيقظت من نومى فى الليل وللحظة بدا لى أن يدا عابثة نقلتنى من بيتى الى هذا المكان الغريب بدءا من أثاثه (الذى اخترته بنفسى !) وانتهاء (ولا تحزنى) بسعيدا !

سلمى



اللبان
يرى الأولاد
وينظر اليهم باستغراب

سمعت شمس خطوات على ثم صوت انسكاب المياه في الحمام
فتحت عينيا وهي تفكر انها نامت ليلها الطويل ربما للمرة الأولى منذ
ثلاثة أسابيع

على باب الحمام التفت بعلى يجفف وجهه وشعره بالمنشفة بادرها
« بصباح الخير يأمى » فجذبتة من رقبته وقبلته وهي تقول ضاحكة « يا صباح
الخير كله ! » وقالت لنفسها ان الله لا يبد راض عليها ألم يعد لها علياً
بالسلامة ؟

حين دخل البيت عليها قبل يومين اطلقت زغرودة وتعلقت بعنقه كأنها هي
الابنة وليست الام ثم هرولت الى الشارع واشترت زجاجات شربات الورد الأحمر
وصبت منه في الاكواب وخلطته بالماء ووزعت على الجيران وحتى المارة في الطريق
دعتهن للمشاركة

واجتمع اهل البيت في شقتها تحلقوا حول على وأمنة يستمعون الى
حديثهما الصاحب حول الذى صار

قالت أمينة

— يبدو اننى كنت قد غفوت لاننى استيقظت على صوت أحدهم يكرر في
مكبر الصوت ان قوات الامن اقتحمت الجامعة

قاطعها أبوها

— أنمت وأنت جالسة على الكرسي ؟

ابتسمت مديحة ببحث لسؤال أبيها وأجابت أمينة انها وبعض زميلاتهما كن
ينمن لبضع ساعات في إحدى المقصورات الجانبية للقاعة تضم كل منهن
مقعدين مشكلة منهما سريرا من نوع ما وتنام

قال على

— اذن كنت نائمة حين ناقشنا الأمر ؟ لقد عرفنا منذ أحاطت سيارات الأمن
بأسوار الجامعة .

— يبدو أننى كنت نائمة لأننى استيقظت لأجد بعض الضباط داخل القاعة
فعلا وكان الشاب يطلب منا عبر مكبر الصوت أن نخرج فى هدوء

— بدأنا نخرج فى هدوء متتابعين وكأننا تلاميذ مدرسة يغادرون الفصل بانتظام
بعد انتهاء الدرس ولكن الوقت لم يكن ظهرا بل فجرا شتائيا برج الساعة
عن يسارنا ومبنى كلية الآداب المواجه له ثم مبنى كلية الحقوق عن يميننا
كانت كلها كتلا داكنة تحت سماء بنفسجية هل كان البعض منا قد سبق
واتفق على ذلك أم أن الامر جاء عفويا وجماعيا بهذا الشكل المدهش علا
صوت البعض بالغناء فاذا بنا جميعا ننشد
بلادى بلادى بلادى لك حبيبى وفؤادى

وتوجه على الى امه بالحديث

— تخيلى يا أمى تخيلى هذا المشهد أكثر من ألف ولد و بنت ينشدون معا
فى هذه الساعة المبكرة من الصباح !

أكملت أمينة

— سرنا فى الممر المرصوف الذى يقطع العشب الأخضر فى مدخل الحرم
الجامعى متجهين الى سيارت الأمن ثم ركبنا فى أقسامها الخلفية المسقوفة
بالقمماش جلسنا على المقاعد الخشبية المتوازية كنت سوف أموت من
البرد وخصوصا عندما تحركت السيارات !

— وأنا أيضا !

— ولكننا نسينا !

— نعم نسينا — أكد على — حين بدأنا نكتب تلك الأوراق الصغيرة كل ما وجدناه معنا من ورق ابيض استخدمناه قسمناه الى اوراق صغيرة كتبنا على كل منها « اصحى يامصر » وأخذنا ننثرها في الشوارع التى نمر بها

— لم يكن ضوء الصباح قد انتشر تماما بعد وأنا رأيت رجلا يركب دراجته ويحمل على جانبها قسطين كبيرين من أقساط الحليب رأيت بائع الحليب ينزل من على دراجته ويلتقط ورقة من الأوراق التى نثرناها ويتطلع فيها ثم يتطلع الينا بتساؤل واستغراب . رأى زميل مارأيت . فقال : اكتبوا عن اعتقالنا « فصرنا نكتب « اليوم تم اعتقال ١٥٠٠ طالب وطالبة من داخل جامعة القاهرة » أخذنا نكتب على قصاصات الورق وننثرها فى الطريق حتى لم يعد معنا ورق

كان على وامينة يتحدثان بحماس وتأجج وكأنهما يقصان وقائع مغامرة مثيرة ولكن وجهيهما كانا شاحبين فكرت شمس انهما يضحكان ولكنهما مرهقان قالت

— بعد غد الغداء عندى ، سوف أذبح ذكر البط

قال على

— ولماذا ليس غدا يا أمى ؟

— بعد غد ، بعد غد لكى تكون بشرى معنا

ولكنها كانت تكذب . كان عليها ان تفى أولا بالنذر .

النذر

□ □ في صباح اليوم التالي توجهت خمس الى الصاغة وباعت احدى الاسورتين اللتين اهداهما لها زوجها يوم ولادة على أخذت ثمن الاسورة من الصائغ وهي تكرر في داخلها « لا أفرط في هديتك ، لا أفرط ولكنه النذر والنذر دين »

بعد ذلك ذهبت الى الجزار واشترت لحما وطلبت منه ان يقسمه ويوزعه في لفافات مستقلة وضعتها جميعا في سلتها التي اصبحت ثقيلة حملتها وركبت الأوتوبيس المزدهم الى ميدان السيدة زينب ثم نزلت وسارت الى المسجد وهناك وزعت اللحم وبعد أن أوفت النذر خلعت حذاءها ووضعت مع السلة جانبا ودخلت الى الضريح وأمسكت بقضبانها وهمست للغالية المدفونة فيه

«يا بنت بنت رسول الله ياطاهرة جئتك في غمتي وشكوتي فاستجبت يا أم العواجز احفظي لي بشرى وعلى واطرحي البركة فيهما واجعليهما للناس خيرا يا أم هاشم ليس لي الا هما هما عيناى ، بلونهما تصير الدنيا ظلاما هما ساقاى ، فكيف امشى من غيرهما هما ثوبى وغطاى روى فيهما ياطاهرة فابعدى عنهما أولاد السوء والحكومة وعسكرها واشفعيلى عند ربي »

كان وجهها مبللا ومنابت شعرها ايضا وكانت الدموع تنسال من عينيها في هدوء حتى شعرت بثوبها عند الصدر مبللا كذلك ملست على قضبان الضريح مرة اخيرة ثم ملست على صدرها ومسحت وجهها بكلتا يديها وعادت الى البيت تملؤها السكينة .

لن يعرف احد شيئا عن ذلك قالت شمس لنفسها وهى تجلس مع على
يحتسيان الشاي سأل على عن موعد وصول قطار بشرى فقالت له انه يصل
عادة فى الثانية عشرة ظهرا ولكنه من الأفضل أن يسأل للتأكد

سيذهب لاستقبال اخته ويعودان معا الى البيت وسيلتم شمل الأحباب
كلهم على الغداء اليوم حتى سعيد زوج سلمى سيكون حاضرا غالبت شمس
تنهيدة وهى تؤكد لنفسها غدا ينصلح حالهما ويصبحان اكثر من السمن على
العسل ومن يدرى لعل سلمى تأتى بطفل يهدىء سرها ويملا البيت عليهما قبل
يومين حين زارتها لفت نظرها شحوب وجهها ، سألتها

— هل أنت حامل ياسلمى ؟

فاحتدت وقالت انها ليست حاملا وان كانت فستجرى عملية اجهاض !

ما الذى اصاب البنت عين ١؟ لقد وبختها على كلامها « عيب
ياسلمى وحرام ! » زجرتها وكأنها مازالت طفلة فى العاشرة ولكن قلبها رغم
ذلك كان يوجعها على البنت

قامت شمس وللمت محل الافطار وصعدت الى السطوح لتذبح البط

أوقدت الوابور ثم ملأت الصفيحة بالماء ووضعتها على النار سارت الى
الحظيرة الصغيرة التى بالطرف الآخر من السطوح واخرجت منها البطة الاولى
امسكت بها بيدها اليسرى ويدها اليمنى التقطت سكين الذبح المسنون وبحركة
واحدة سريعة ومدرية مرت بها على رقبة البطة وهى تبسمل ثم ألقت بها بعيدا
مضرجة فى دمائها . أخرجت البطة الاخرى واعادت الكرة أنزلت صفيحة الماء

من على النار وأطفأت الوابور جلست على الكرسي الخشبي الصغير بجوار
البطتين المذبوحتين اللتين كانتا قد خمدتا تماما تناولت احدهما وغمسها في الماء
الساخن وبدأت في تنف ريشها الاسود حتى صارت عارية تماما الا من جلدها
المحب وضعتها في وعاء نحاسى وتناولت البطة الثانية



لقاء

غادر الشاب بشرى فعادت الى دورتها المعتادة ، درست وقومت ووبخت وعلا صوتها وتوترت وابتسمت ومدحت وشجعت وصححت كرايس وشربت الشاي وقرأت وكتبت رسالة لصديقة وتحممت وأكلت وآوت الى فراشها ، وصورة الشاب في مخيلتها لا تفارقها قال انه سوف يعود ، فهل يعود ؟ ما الذى يجعله هكذا اليقا ؟ انه ليس وسيما ، ربما كانت ضحكته العالية الحرة هى الجميل فيه ام انها قدرته على الحديث ؟

بعد ثلاثة أسابيع عاد ليستكمل بعض البيانات الخاصة بالبحث الذى يجريه حول التعليم فى الريف . أدهشتها قدرته على بلورة الامور والربط بين الظواهر

قالت له ذلك ضحك فبدا لها جميلا ، من قال انه ليس كذلك ؟

سافرت الى القاهرة فى عطلة قصيرة قضت يومين بالعاصمة ولما عادت سألت ان كان قد جاء فى غيابها قالوا لم يأت وكانت الآن تعرف انها حين تستيقظ فى الصباح تنتظر شيئا بخلاف لقائها مع تلميذاتها ونوع المعركة التى ستفتعلها الناظرة وكأن وعيها انقسم على اثنتين احدهما تتحرك فى السياق اليومي تفعل وتفعل ، والأخرى انتحت جانبا من الطريق ووقفت تنتظر

مرت أسابيع طويلة لم يأت فلما ذهبت الى القاهرة اتصلت هى به فى مقر عمله « هل انت بخير ؟ » سألت فضحك وقال انه بخير وقال « أهلا » اتفقا على أن يلتقيا

رأته بشرى وهو يعبر الطريق فى اتجاهها ولاحظت انه ازداد نحولا فبدا وكأنه دون العشرين بعد ان تصافحا سألته عن عمره فقال انه فى الرابعة والعشرين « إذن فأنت اكبر منى بستين » قالت وهى تضحك وتسير بجواره الى المقهى الكبير المشرف على النيل نزلا عدة درجات فطالعتهما صفحة النهر تمتد مابين الضفتين جلسا على مقعدين متقابلين ملاصقين للشاطئ تظللهم شجرة وارفة وكان بإمكانهما رؤية العمارة الحديثة للبنك الاجنبى والتى استبدلت بالسواتر الخشبية المعتادة للنوافذ زجاجا داكنا يمكن من بداخلها من رؤية من فى الخارج ولا يسمح بالعكس ، وكذلك العمارات الجديدة العالية التى يسكنها رجال الاعمال وكبار المهنيين

فى النيل كان الاتوبيس النهري يشق طريقه بسرعة تؤكد لها الحركة الوثيدة لصندل محمل بالأوانى الفخارية ولبعض القوارب الصغيرة لفقراء الصيادين .

— أهلا يا بشرى !

ابتسمت وقالت انها افتقدته ولاحظت انه ارتبك للعبارة فارتبكت ولم تدر
ماذا تقول

جاء النادل طلبا كوين من الشاى سألها طه عن المدرسة

— أفضل

— بمعنى ؟

— بمعنى أن الناظرة لأنها تخاف ولا تحتشى صارت تتصرف بدرجة أقل من
الفُجّر تعرف اننى لن اترك ماتفعله يمر دون « شوشرة » ويمكن ايضا
بمعنى اننى صرت اتحمل اكثر وأواجه أكثر — ثم وهى تضحك — صار فى
شئ من الخرتيت جلد سميك وقرن ينطح !

ضحك وضحكت . إستأذن ليذهب الى دورة المياه وتساءلت بشرى وهى
تنتظر ان يعود ان كانت قد اصيبت بانفصام فى الشخصية منذ اسابيع طويلة ،
ربما ثلاثة أشهر الآن ، وهى تستحضر صورته كل يوم ، تذكره وتفكر فيه وحين
تأوى فى الليل الى فراشها تخلع نظارتها وتغمض عينيها فتراه ويدور بينهما حديث
هادى وناعم ودافئ كالحظات الخلد بين الصحو والنوم ومع ذلك فقد
جلست أمامه رزينة وعاقلة تحدّثه بهدوء كأنه شخص عابر القته مصادفة فى
مكان عام . ولكنها عادت توبخ نفسها وتستغرب افكارها كيف يمكن ان يدور

بينهما حديث مختلف ؟ وهل كان يعقل أن لمحته قادما سألته وهو يتخذ مكانه أمامها

— ولكنك لم تقل لي ماهي اخبارك ماذا تفعل ؟

— أعمل كثيرا وأشعر بشيء من الارتياح لذلك

— ليس لك أصدقاء ؟

— لي أصدقاء كثيرون وكان لي صديق ، صديق واحد حميم — توقف برهة ثم أكمل — ولكنه ذهب وأنت ؟ باعته بانتقاله السريع الى سؤالها

— نعم ، نعم ، انا ايضا لي صديقة حميمة نشأنا معا ولكنها تزوجت من رجل مقرف اسمه سعيد أشعر انها في مأزق حقيقى ولا اعرف كيف اساعدها

— هل لديها أولاد ؟

— لا ، فقد تزوجت مؤخرا

— ربما كان من الأفضل ان ينفصلا

— ربما

قاما ثم توقفا ليدفعا للنادل حساب الشاى . سألها وهما يصعدان الدرج

يقصدان الشارع ان كانت تحب القراءة قالت انها كانت تجد متعة في قراءة الكتب المقررة عليها في قسم التاريخ ولكنها لم تتعود قراءة كتب خارجية فابتسم وهو يقول لها انهما اذن مختلفان فابتسمت رغم ارتباكها لتعليقه

وقفا ينتظران على محطة الأوتوبيس وحين لمحت بشرى الأوتوبيس الذى ستركبه قادما فوجئت بنفسها تسأله ان كان بإمكانهما ان يلتقيا ثانية قبل ان تسافر

الأبواب المواربة

□ □ خرجت الى الطريق قبل ان تفكر انها سوف تفعل لم يكن بالإمكان الانتظار داخل الجدران انحرفت يمينا مخلفة وراءها المباني الاربعة للوحدة المجمعة الوحدة الصحية ومجلس القرية والمشغل والمدرسة سارت بمحاذاة المصرف الذى كانت مياهه كالعتاد راكدة لها لون اخضر داكن مرت بثلاثة اولاد يجلسون على حافته يستذكرون دروسهم تحت الفروع المتدلية لشجرة صفصاف تجاوزت جاموستين تتحركان بثقل تسوقهما بنت صغيرة وكانت تمشى بخطى سريعة كأنها على موعد سارت في الممر الطينى الضيق الفاصل بين حقلين مزروعين قمحا وعندما اصبحت محاطة بالزرع توقفت وقد بدا لها انها كانت تقصد المكان « أنا أحب هذا الشاب ، من المؤكد اننى احبه » ومع ذلك فلم تكن تعرف كيف تتعامل مع هذه الحالة التى وجدت نفسها فيها لم تكن جموحا ولا صخبيا ولكن شيئا يفيض داخلها تقف ازاءه وجلة ومسلمة امرها سرحت البصر الى القمح الاخضر ، كان يموج بحركة ناعمة بفعل الهواء راحت تقطف بعض السنابل وتجمعها في باقة وواصلت سيرها على الحز الطينى الضيق وهى تترجم بلحن قديم أليف . « يصعب ان اعود الى البيت هذا المساء ،

سيصعب » قالت لنفسها وهى تترك الحقل الى الطريق الترابية

التقت بفاطمة الموظفة فى مجلس القرية وبصحبها فتاة لاتعرفها تصافحن
وقالت فاطمة أن من بصحبها تقوم يبحث عن شخصية المرأة الريفية وانها تأخذها
الى البيوت لتسأل القرويات استوقفت فاطمة فلاحه فى مقتبل العمر

— مساء الخير يازينب ، الأستاذة حورية تكتب بحثا عن الفلاحه وتريد أن
تسألك

— ياختى بلا هم — أشاحت المرأة بوجهها فى نفاذ صبر — مالنا ومال
المباحث ، خليها تشوف حد رايق !

— هل جنتت ؟! الست تريد ان تسمع منك عن الزراعة والفلاحه هل ذكر
أحد المباحث ؟! بحث يعنى تكتب المفيد فالحكومة تقرأ وتتصرف بالمفيد !

وكان صوت فاطمة الذى بدأ حادا وموبخا فى مطلع الجملة قد هدأ تدريجيا
حتى عاد لدرجته المعتادة عند ختامها

— طيب ياختى !

قالتا المرأة بنفس درجة الحدة وكأنها نجيب على اساءة

— أقول ايه ؟ قول أقول ايه ؟! أقول المظبوط ؟! المظبوط أن الزراعة خرة !
اكتبى ياست .اكتبى عندك فى الأوراق ان الزراعة خرة وماعدتش جاية
ثمها ، اكتبى ياختى اكتبى اننا بنشقى طول اليوم ومانلاقش اللضى فى

آخره — أشاحت بوجهها ثانية وهى تتحرك بعيدا عنهن — والنبي يافاطمة
جلّى عني ، جلّى عني يا شيخه دانا مش ناقصاك !

وقفن مشدوهات كبلهاوات ثلاث لا يفهمن سببا لحدة المرأة التى كانت
تسرع الخطو فى طريقها دون ان تلتفت اليهن وعلفت فاطمة على السنابل التى
يبد بشرى

— مالك ياست بشرى ماسكة القمح كأنه ورد !

فارتبكت بشرى ولم تعرف ماذا تفعل بالقمح فكرت فى الاستئذان
والعودة الى البيت ولكن فكرة قضاء المساء بمفردها منعها

— الى اين انما ذاهبتان ؟

سالتها ، فأجابت فاطمة

— سأخذ الأستاذة حورية الى عزبة « أبو مرج » ابنة عمى متزوجة هناك
وهى تعيش مع سلايفها وحمايتها ويمكن للأستاذة تطبيق الاستبيان عليهن

— هلى آتى معكما ؟

رجبتا فسرنا ثلاثتهن بجوار حقل القمح الذى صار الى يمينهن ثم اتجهن يمينا
مرة أخرى فعدن الى المصرف مشين بمحاذاته حتى وصلن الى الطريق العمومية
وأخذن ينتظرن . توقفت سيارة نصف نقل .

— أبو مرج ؟

سألت فاطمة أشار عليهن السائق بالركوب كان يجلس بجواره رجلان
صعدن في الجزء الخلفى من السيارة المسقوف بقماش من التيل السميك جلسن
متجاورات على اللوح الخشبي الممتد على أحد جانبي السيارة على اللوح المقابل
كان يجلس فلاح كبير يضع على كتفيه عباءة سوداء يلفها عليهما كأنها شال
ويرتكز بمرفقيه على ركبتيه المتباعدتين

— الى أين ؟

سأل

— الى « أبو مرج »

قالت فاطمة

— هل تسكنُ هناك ؟

— لا ، أنا من الكفر ، والاستاذة تعد بحثا عن المرأة الريفية ، والآنسة مدرسة
في مدرسة الوحدة

— ماشاء الله !

قالها الرجل بابتسامة لم تستطع بشرى ان تلتقط دلالتها كانت التجاعيد
على وجه الرجل تشير الى أنه طاعن في السن ومع ذلك كان في عينيه بريق وحيوية

يكذبان ذلك واصل الرجل الكلام

— كان الى رحمه الله يقول « البنت عشر عورات لما تتزوج تنستر واحدة أما التسعة الباقيات فلا يسترها الا الموت » — ضحك ضحكة خشنة وبصق بصقة بعيدة من الباب الخلفى المفتوح ثم أكمل — وكانت امى تقول له « صحيح موت البنت هنا ولو شوارها على القنا » ألا يفيدك هذا الكلام بشئء يا بنتى !؟

وكان يوجه سؤاله الى حورية وتلك الابتسامة المحيرة لاتزال على شفثيه وتساءلت بشرى ان كان يسخر من تلك الأمثال الدارجة ام يسخر منهن ام ان السخرية من صنع خيالها سألته

— وأنت مارأيك يا حاح ؟

فعاود الضحك وقال

— أنا فلاح !

وسرح البصر الى الطريق ايذانا بانتهاء الحديث

كانت السيارة الآن قد تجاوزت الطريق الأسفلتية الممهدة وانحرفت الى سكة ترابية ضيقة فصارت تترجرج بشدة حتى اضطرت البنات الى الامساك باللوح الخشبي الذى جلسن عليه خشية السقوط .. أما الشيخ الجالس فى مواجهتهن فقد بقى ثابتا فى مكانه وعيناه الحاضرتان فى وجهه البنى المجعد كعيني صقر ، يبدو نصفه الأعلى بانحناءته البسيطة ومرفقيه المرتكزتين على ركبتيه كهزم صغير .

توقفت السيارة فتزلن ناولن السائق أجرة الركوب ومضين

قادهما فاطمة فى طريق تربية مررن بيعض البيوت ابوابها مواربة ولكن بشرى التى لاحظت ذلك لم تتمكن من رؤية شىء مما بداخلها امام واحد منها كانت عجوز فى الثياب السوداء التقليدية تفتش الأرض تابعتهم بعينها حتى انحرفن الى زقاق جانبى ضيق أفزعت خطواتهن الدجاجات وطفلا صغيرا يحبو وتبدو مؤخرته العارية من ثوبه القصير وأخيرا اعلنت فاطمة « وصلنا ! » فتوقفن امام بيت من طابق واحد تزين جدرانها الجيرية رسومات بهتت ألوانها بفعل القدم قطار وسفينة وجمل والكعبة ومسجد يعلو قبه هلال اخضر وتحيط بها عدة مآذن تتوسط المسجد عبارة المدينة المنورة ، وفوق باب الدار الخشبي جملتان كتبتا فى سطرين متعاقبين « حج مرور وذن مغمور » و « سالة ياسلامة رحنا وجينا بالسلامة »

كان الباب مفتوحا فدخلن الى باحته تتقدمهن فاطمة التى انحرفت مباشرة الى اليمين فولجت باب احدى الحجرات وهى تنادى على ام سيد ، ابنة عمته

على طرف السرير العريض المواجه للباب كانت تجلس عجوز طاعنة فى السن ، صغيرة الحجم كضبية بدت ضفيريها الرفيعتان وكأنهما خيوط فضية مجدولة

— مين ؟

قالت بصوت مباغت وعال نسبيا

— أنا فاطمة ياستى سجر ، فاطمة بنت عزيزة ام مصطفى قالت فاطمة

وهي تقترب من المعجوز وتلامس كفها لمصافحتها كانت المرأة عمياء
قالت لها فاطمة ان معها ضيوفا من « مصر » سلمت عليهن وهي تطلب
من « الواد سيد » ان ينادى على امه وزوجات اعمامه ساعتها فقط
لاحظن سيد الذى كان يلبس بيجامة ذات خطوط طولية زرقاء

جاءت ام سيد مهرولة وهي تنشف يديها فى اطراف ثوبها وفى اذيالها طفلة
صغيرة لم تثبت خطواتها تماما بعدها جاءت جميلة وجمالات

رحبت بهن النساء الثلاث بدا واضحا لبشرى انهن السلافات اللأى يعشن
فى نفس الدار ثم نادى ام سيد على سيد — الذى كان قد خرج من الحجرة
وهي ترفع ثديها الايسر بيدها اليسرى وتخرج منه بيدها اليمنى منديلا معقودا جاء
سيد وممست فى أذنه وهي تفك المندبل وتناوله عملة ورقية قال الولد بصوت
مسموع « سأذهب بشرط ان اشترى واحدة لنفسى ا » حدثت فيه امه وهي
تعض على شفتها السفلى متوعدة

أخذ الولد الفلوس وطار لكى يحضر المطلوب والتفت اليهن المرأة وهي
تعيد الترحيب وتؤكد ان « البلد نورت » وقالت فاطمة ان الاستاذة حورية
جاءت لتطبق استبياننا معنى أسئلة عن موضوع المرأة وانها سوف تسأل ام سيد
عن رأيها وصعد الدم الى وجه ام سيد وهي تضحك فى شبه استنكار « ويكون
لى رأى مكتوب فى الكتب ا » دخل سيد وهو يحمل زجاجات الكوكاكولا
منتصرا ، وضعها أمام الضيفات

كانت الحجرة الآن قد امتلأت بالاطفال ولم تعرف بشرى ان كانوا أولاد
النساء الثلاث ام اولاد الحارة ولكنهم كانوا قد جاءوا يطالبون بنصيبهم فى
الكوكاكولا : « واهمعى سيد ا » زجرتهم الامهات فخرجوا وهم يلغظون وتركوا

وراءهم الطفلة الصغيرة وطفلا آخر يقارها العمر صبت جميلة لكل منهما قدرا
من الكوكاكولا في كوب صغير من اكواب الشاي

وانتحت حورية جانبا بأمر سيد لكى تسألها وقالت فاطمة ان « الست
بشرى » ايضا من مصر ولكنها تعمل مدرسة فأشرق وجهها جميلة وجماليات وهما
ترحبان للمرة الثالثة

طلبت ام سيد من جميلة ان تقوم لتحلب الجاموسة « وتعمل الواجب
للضيوف » علفت الاستاذة حورية انه لاداعى لذلك وانهن شرين الكوكاكولا
ولكن النساء الثلاث اعترضن في صوت واحد بأنه « مش كلام »

وسألت بشرى على استحياء ان كان بإمكانها ان تشاهد حلب الجاموسة
فضحكت جميلة وهى تسألها ان لم تكن رأت ذلك أبدا شعرت بشرى بالدماء
تصعد الى رأسها وهى تتبع المرأتين دخلت جمالات الى حجرة جانبية ثم
خرجت منها ويدها كرسى خشبى كبير له ظهر وقاعدة قماشتين يغطيها نايلون
شفاف حاولت بشرى ان تأخذ منها الكرسى الذى كانت تحمله فى يدها اليمنى
فى نفس الوقت الذى تحمل فيه طفلها على خصرها الأيسر وتحيط به بذراعيها ،
ولكنها رفضت . وعندما ألحت بشرى أقسمت ان ذلك مستحيل سرن فى دهليز
معتم ثم دفن الى مكان ذى رائحة نفاذة لم تبين بشرى شيئا من طبيعته الا عندما
اشعلت جمالات لمبة جاز فرأت الجاموسة

على باب الحظيرة الصغيرة وضعت جمالات الكرسى الخشبى
وقالت « اتفضلى ياست بشرى » ولم تجرؤ بشرى على رفض الجلوس على

الكرسى رغم شعورها بالحرج والخجل والضيق لأنه لم يخطر حتى ببالها ان هذا الكرسى كان من اجلها

جلست ، وقرفصت جمالات بجوارها واخرجت ثديها لارضاع الصغير أما جميلة فقد كانت تفرص هى ايضا بين قوائم الجاموسة تمسك بضرع البقرة وتلكه برفق قبل ان تشرع فى الحلب كانت لمبة الجاز عن يمينها وبالقرب من قدمها تحت ضرع الجاموسة إناء فخارى كبير وكانت بشرى تراقب ذلك وهى جالسة على الكرسي عند باب الحظيرة

ثم بدأت جميلة تحرك يديها فى دربة وسرعة تضغط وتعتصر صعودا ونزولا فيشخب الحليب فى دفقات متقطعة لها صوت عال ومتميز ولما امتلأت الآنية بالحليب حتى حوافها استبدلت بها أخرى وواصلت حتى امتلأت

قامت جميلة وحملت المصباح فى يدها اليمنى وآنية حليب فى يدها اليسرى وقالت « اتفضلى ياست بشرى » فقامت بشرى وتشبثت بالكرسى لكى تحمله هذه المرة ولكن جمالات اقسمت بترية ايها انه لن يحمل الكرسي سواها

خارج الحظيرة مباشرة توقفت جميلة ووضعت المصباح والآنية على مرتفع طينى وأخرجت من صدرها مفتاحا وفتحت به بابا خشبيا صغيرا مخزن مُشيد من الطين ووضعت فيه الآنية بحرص ثم أغلقت الباب بالمفتاح وأعادته الى صدرها أخذت اللبة وذهبت الى الحظيرة ثم عادت وفى يدها الآنية الثانية

سرن فى الدهليز تنقدمهن جميلة تحمل الحليب والمصباح الذى أطفأته ، ثم جمالات تحمل الطفل والكرسي ، ثم بشرى وحين وصلن للباحة الترابية بصحن الدار قالت جميلة : « اتفضلى ياست بشرى ، سأسكب الحليب فى الأكواب

دخلت بشرى الحجرة وكانت حورية مازالت مستغرقة في أسئلة الاستبيان
وأم سيد موردة الوجه يبدو عليها انفعال من يلعب لعبة مسلية للمرة الأولى
والعجوز في نفس مكانها بأقصى طرف السرير مستغرقة في عزلتها

أتت جميلة بالحليب للضيقات الثلاث فشرين وقررت الاستاذة حورية ان
تواصل اسئلة الاستبيان في يوم آخر لانها لا بد أرهقت ام سيد ولأنهن يرغبن في
العودة قبل حلول الظلام ، وشكرتها كما شكرت جميلة وجماليات تصافحن وسط
تأكيدات النسوة الثلاث والعجوز ان لا يتأخرن عليهن وان الدار بل الكفر كله
« نَوْر » و « تشرف » بالزيارة

وعندما ركبن السيارة للعودة كان بامكانهن رؤية الفلاحين عائدين من
الحقول في الغسق يثير ديبهم الجماعى على الأرض الترابية هالة من غبار تلفهم
وتتبعهم وهم يسوقون دوابهم

وكانت بشرى طوال الطريق مستغرقة في متابعة المشهد وفي التفكير في تلك
الرسالة الطويلة التى ستكتبها لطفه سوف تسر اليه بكل مايشغلها ، سوف تقول
له كم تحتاجه وكم تحبه وكم تفتقده في كل دقيقة الآن

ولما عادت الى مسكنها جلست للكتابة ، كتبت ومزقت وتوقفت وخلعت
نظارتها وتأملت ونميرت وتساءلت ، لبست نظارتها وكتبت ثم مزقت وأخيرا
تحققت انها غير قادرة على الكتابة فقامت لتنام

٧

زنجية

استيقظت سلمى بشعور طاغ بالثقل في رأسها وعينيها واسفل
معدتها وما ان اعتدلت في الفراش حتى داهمتها رغبة في القيء هرولت
الى الحمام وانخت على المفصلة وأفرغت ما في جوفها لم يكن فيه سوى
ذلك السائل الأصفر شديد المرارة

غسلت وجهها وفرشت اسنانها ودخلت المطبخ لتصنع الشاي القبيء
يملاً المرء بالوهن ، قالت لنفسها ، ولكنه بعد ذلك يتحسن وفعلا شعرت رغم
الصداع وبرودة الاطراف انها افضل .

أخرجت شالا صوفيا صنعتها لها شمس وتذثرت به وحملت كوب الشاي الى المقعد الملاصق للنافذة الكبيرة فتحتها وجلست الشتاء اقبل مبكرا ، فكرت وهى تنظر الى ساعتها اليوم الأول من نوفمبر مرت عشرة أشهر كاملة على زواجها وهامى علاقتها بسعيد تندهور كأنها حجر يتدحرج من رأس جبل كيف بهذه السرعة ولماذا ؟ وأيهما المسئول ؟

فى الشهر الأول كان سعيد لطيفا ومتفهما كما كان فى شهور الخطبة واستحوذت الاشياء الجديدة على اهتمامها ، البيت والأثاث والمطبخ والمهام المنزلية ، كانت كلها جديدة ومثيرة كتلك الدعابات الليلية فى الفراش فلماذا تحولت الآن كلها الى عبء ، كلها بلا استثناء البيت حصار ، والأثاث الخشبي الثقيل يجسم على صدرها كأنها هى التى تحمله ، وسعيد يأتيها ليلا مطالبا وهى لاترغب وهو يلح ثم يأخذ عنوة ويتركها بعد ذلك متهكة وبائسة ثم يروح فى نوم عميق وتدخل هى الحمام تبكى وتغتسل وتتساءل عن الغد

قال سعيد أنه لايصح وهى المرأة المتزوجة أن تترك دراجة وتسرح بها فى الشوارع كالصعاليك وقال انه لايصح ان تذهب الى تلك الأماكن الخلوية وحدها وقال انه لايعنى لخروجها للعمل لانها ليسا بحاجة ودخله وحده يكفيهما ، قال ان بإمكانها ان تعمل فى المستقبل لو لاحت لها فرصة مناسبة فكيف تلوح ؟

وما العمل اذن ؟ يتكرر السؤال كل يوم هل تعود الى بيت أبيها ؟ وما الذى سيقوله أبوها ؟ وما الذى يفعله سعيد ؟ وماذا سيقول الناس ؟ وما الذى يجعلها تشعر هكذا بالاختناق ؟!

تقول خالتها شمس انه هكذا تكون الأمور دائما فى البداية متعة ثم يأتي

الأطفال فتستقيم هل تصدقها ؟ وما الذى سيجعلها تستقيم ؟

غسلت وجهها مرة أخرى وارتدت ملابسها وغادرت البيت عبرت الجسر وسارت بمحاذاة النيل واصلت وهى تتابع بعينها صفحة النهر الفضية « هذا النيل جميل ، وصفحته عريضة كصدر انسان رحب » أعجبها التشبيه فكررت وهى ترقب القوارب فى النهر وحركة أشرعتها القديمة والنخيل فى الضفة الأخرى مشت طويلا مستمتعة بأشعة الشمس القوية الدافئة ، مشت حتى كلت قدماها نظرت فى ساعتها وجدت تقارب الواحدة دخلت الى مقهى على النيل وطلبت كوبا من الشاي وتمنت وهى تجلس لو ان معها ورقة وقلم ربما كتبت شيئا عن ماذا ؟ ربما عن صفحة النهر ربما لو ان القلم والورقة معها لعرفت عن ماذا شربت الشاي ثم بدأت طريق العودة

حين لاح لها البيت فى البعد كانت قد استعادت ذلك الاتزان الداخلى الذى يجعل جسدها رائقا وهادئا سعدت السلم ثم أخرجت المفتاح من حقيبتها وأدارته فى الباب ودخلت كان سعيد بالداخل يشرب كوبا من الشاي حينه سأل

— أين كنت ؟

— كنت أتمشى على النيل

رفع عينيه مستفهما سألته

— هل أسخن لك الغداء .

— لا .شكرا لقد أكلت ، سخنته وأكلت الساعة الآن الرابعة وانا هنا منذ ساعة ونصف

سكت ثم واصل ، بدا صارما

— سلمى هل تعتقدين أن هذا سلوك مناسب ؟

— أن أتمشى على النيل ؟

بدا لها السؤال غريبا ربما يحتاج سعيد إيضاحا فسرت

— كنت متعبة وأردت ان اسرى عن نفسى وفعلا ارتحت تماما من المشوار

كان صوته حادا الآن ، وكانت هى مباغثة

— أقول أن تصرفاتك غير مناسبة !

قام من مكانه وأشار الى المنضدة التى تتوسط الغرفة

— انظرى الأثاث يغطيه الغبار السجادة لم تكنس منذ عدة أيام أطباق العشاء فى مكانها لم تغسل البيت قدر — سكت ثم واصل — بل قدر جدا ! ثم ذلك الذى حدث ليلة أمس ماذا أقول ؟ لا تريدان تنظيف البيت ولا تريدين ان اقترب منك مابك ؟!

لو انه سأل السؤال بشكل مختلف . كانت بحاجة الى التواصل لو

سألها — « ماذا يضايقك ياسلمى ؟ » ربما حاولت ان تجد الاجابة ولكن هذه الصرامة تشعرها الآن بالرغبة فى البكاء

— سعيد اننى اشعر بالغربة

— لا أفهم !

— أعتقد ان الامور لا يمكن ان تستقيم هكذا

— طبعاً لا يمكن ، لا يمكن أبداً فأنت لاتقومين بأى من واجباتك الزوجية !

— أنا لا أقرأ ولا أعمل ولا أقوم بأى شىء من الأشياء التى أحبها أشعر أن اليوم يمر بطيئاً وكثيباً

— سلمى أنت مدللة ولا تقومين بواجباتك الزوجية عليك ان تقومى بواجباتك الزوجية ان استيقظت فى الصباح ونظفت البيت وأعددت الطعام وغسلت الغسيل فلن تجدى وقتاً لهذه الأفكار السخيفة تستطيعين بعد ذلك أن تتصفحى مجلة او تقرأى رواية فى انتظار عودتى وبعد الظهر يمكن أن آخذك للفسحة

— سعيد أعتقد ان يومى كئيب !

كان صوتها الآن اكثر وضوحاً وثباتاً

— غداً تحبلين ويأتيك الاطفال ويملأون حياتك .

— أنا لا أريد أطفالا الآن على الأقل لا اريد اطفالا

— أنت غريبة الاطوار !

تركته وذهبت الى المطبخ سمعت صوته يلاحقها

— هل انا كلب ينبج ، تركبني هكذا وانا في وسط الجملة ! لحقها

— سلمى أنت قليلة الأدب !

— عيب ياسعيد !

— اقول انك غريبة الاطوار وربما كنت مريضة وبحاجة الى علاج وانا لم أقصّر
قدمت كل الهدايا الواجبة ، ساهمت في تأثيث البيت ، وفرت شقة لوكس ،
وهاهي الثلاجة لاتخلو من اللحم والفواكه !

تركت المطبخ عائدة الى الصلاة وهو يلاحقها

— ما الذى ينقصك ؟ قولى ما الذى ينقصك ؟ أتحداك ان تذكرى شيئا
واحد ينقصك ما الذى ينقصك ؟ ردى !

كان يصرخ الآن كأنه معتوه وتساءلت سلمى ان كان زوجها قد اصيب
بنوبة عصبية وارادت ان تقول له ذلك ولكنها لم تفعل .

— سعيد هل يمكن ان تكف ؟!

— لا ، اريد ان اعرف ما الذى يتفصلك ؟

— كل شيء !

— اخرسى !

لم تتوقع ذلك ابدا ولكنه حدث لطمها على وجهها وللحظات بعد ذلك لم تعد ترى سعيد او تسمعه هل قال شيئا هل بقى فى الحجرة هل تركها ؟ كانت تفكر فى شيء واحد فى هذه الصفة الجديدة ربما تزوجت سعيد لكيلا يصفعها ابوها ولا أى انسان آخر ولن يصفعها انسان ابدا

امضت سلمى بعد ذلك ستة ايام فى بيت سعيد قلبت فيها الامور على كل وجوهها لم تبادله حرفا ولم تحدث انسانا وفى اليوم السابع ذهبت الى بيت ايها واعلنت انها قررت الطلاق استشاط ابوها غضبا وتحدثت زوجة ايها عن الزوجة العاقلة وعن الشيطان الذى عليها ان تحذله وامتنع وجه شمس وتناقش الجميع فى الامر اجتمعوا وانفضوا واتفقوا واختلفوا وضربوا امثالا لاحصر لها عن الخلافات العائلية التى تنتهى دائما على خير وقال الاب انه لم يحدث من قبل ابدا ان طُلقَت امرأة فى العائلة « لقد اخطأ سعيد وسيأتى ويعتذر وينتهى كل شيء طلاق سألقى بك فى الشارع ان نطقت بهذه الكلمة مرة أخرى ! » ولكن سلمى كانت قد قررت ما لارجعة فيه لن تدخل بيت هذا الرجل على قدميها أبدا هددوا وتوعدوا ورغبوا وحاولوا ثلاثة اشهر وفى الشهر الرابع ارسل سعيد بورقة الطلاق .

صدّاقة

□ □ حملت سلمى قميص نومها وقالت لأهلها انها سوف تقضى الليلة عند بشرى صعدت السلم ودفعت الباب الذى لم يكن مغلقا كالعتاد

— مساء الخير ياخالتي

— مساء الخير ، أهلا

وعرفت شمس التي كانت تنابع تمثيلية تليفزيونية ما ان رفعت راسها ورأت سلمى انها تعاركت مع اهلها ، كان وجه البنت شاحبا أرادت ان تستفسر عما حدث ولكنها احجمت كانت تعرف الاجابة « لاشيء ياخالتي » سألتها ان كانت قد تناولت العشاء فقالت انها ليست جائعة وسألت عن بشرى

كانت بشرى تجلس أمام المرأة — وقد خلعت نظارتها وراحت تصفف شعرها الكستنائى الطويل لم يكن أحد يراها هكذا أثناء النهار فهي دائما تلبس النظارة وتلم شعرها وتربطه بشريط أسود رفيع او تضفره فى ضفيرة واحدة تلفها خلف رأسها وتثبتها بمشابك من البلاستيك البنى

وقفت سلمى بجوارها فبدأتا معا فى المرأة بشرى فى قميص نومها الاصفر الفاتح وشعرها المحلول وبلا نظارة تشبه امها كثيرا ، فكرت سلمى ، نفس القسمات الكبيرة الواضحة والبنية القوية وهى فى البنطلون البنى والقميص البرتقالى نحيلة وطويلة بملامحها الدقيقة وشعرها البنى المموج القصير « أشبه من ؟ » تساءلت :

— مابك ؟

سألها بشرى لم تجب ، فكررت بشرى السؤال

— قلت لأنى اننى قدمت لمسابقة ترجمة واننى لو نجحت فسأحصل على عمل
بمرتب ممتاز فى فيينا أنا نطقت كلمة فيينا وعينك ماتشوف الا النور
انتفض أى كأنما لدغته عقربة « وآخر زمن بناتى يسافرن الى اوروبا
وحدهن ولماذا ؟ قلة شغل ام قلة رجال ؟! » ثم « يابنت الكلب تطلبين
الطلاق وتقولين أسافر ! » وكلام كثير عن « الشرمطة » و « المشى
البطال »

ونفخت سلمى فى الهواء وهى تقول

— أعوذ بالله كأن الأمر كله كابوس !

— وكأنك تتعاملين مع أليك للمرة الاولى فى حياتك هكذا هو هكذا
كان وهكذا سيبقى ينفجر ثم يهدأ !

— والمطلوب فى كل مرة ان استقبل انا شطايا انفجاراته فى هدوء كأن لاشئ
ينتظر فى وجهى ويصينى ويخرجنى ؟!

— قومى اغسلى وجهك !

— ولكنى سأنجح فى الامتحان ، وسأسافر ، ليس فقط لأننى بحاجة لعمل
دخله معقول ولكن ايضا بسبب تصرفاته ، فى الخروج « انت مطلقة » ،

في الدخول « انت مطلقة » ، والصبح « بناتي » ،
والظهر « بناتي » ، والليل « بناتي »

ضحكت سلمى فجأة وهي تقول

— حلمت مرة بأني وقد وضع بناته تحت حزام عريض شده على خصره خوفا
من ان يفلتن ومن يصحن طالبات النجدة لأن الحزام يضغط عليهن الى حد
الاختناق وهو يسير بحبور لأنه مطمئن عليهن

— وكنت تحت الحزام ؟

— لا كنت خارج المشهد ، متفرجة !

— بذايمك رأيت هذا في الحلم ؟

— لم أراه في الحلم ولكن رأيت !

ضحكت بشري ثم قامت سلمى لتفسل وجهها

آوت شمس الى فراشها وجلست سلمى وبشري على البساط متجاورتين
تحتسيان الشاي قالت بشري

— لم احدثك عن ذلك الشاب ؟

— أي شاب ؟

— الشاب الذى ارىد ان احدثك عنه

ضحكت سلمى وهى تسأل صديقتها ان كان فى الامر فزورة

— ذلك الشاب الذى حدثتك مرة عنه ، الباحث

— الذى كان يعد دراسة عن التعليم فى الريف ؟

— نعم

— يغازلك ؟

— لا

— تغازلنه ؟!

— انا لأمزح انه انسان رائع جدا واعتقد انى احبه

— ما الذى يجعلك تقولين ذلك ؟

— كلما شاهدت شيئا ، كلما مرى شىء فكرت فيه وتمنيت وجوده لمشاركته
والتواصل معه والاستماع اليه

— لعلك منبهرة بدكائه .

— ربما !

— كيف يبدو ؟

— نحيف وأسمر وله شعر أسود مجعد وعينان لوزيتان بهما نظرة مميزة جدا وجميلة جدا تأخذ القلب تصدق اننى احيانا اجد نفسى استحضر لون عينيه او لون قميصه او فتحتى انفه او احدق فى حذاء شخص عابر لأنه يشبه حذائه تصدق !؟

لم نجد سلمى ماتقوله ، توجست

— ليتنه يكون رائعا كما تربنه

— انه رائع ، رائع جدا ولكنى لا أعرف ان كان أمرى بهمه

ثم قامتا معا الى المطبخ غسلت سلمى الكوبين وبرد الشاى الذى ملأته بعد ذلك بالماء ووضعت على الموقد ثم أخرجت أرغفة بلدية من كيس نايلون وأخذت تسخنها فى الوقت الذى كانت بشرى تضع صحنى جبن وزيتون على الصينية حملت بشرى الشاى والعشاء الى الصالة وتبعتها سلمى وهى تنظر فى ساعتها وتقول أن الساعة تقترب من الثانية وان بإمكانهما لو سهرتا أكثر ان تشاهدا شروق الشمس

جلستا على البساط وراحتا تأكلان وتشربان الشاى وبشرى تحكى لصديقتها عن مشهد الناظرة وموظفى الوحدة المجمعمة حين شرعت هى وتلميذاتها فى تنظيف المكتبة وترتيب الكتب .

— البنات كن يأتين قبل الدراسة بساعة وأحيانا بساعة ونصف وكان ذلك مؤثرا فعلا لأن معظمهن يستيقظن قبل طلوع الفجر لحلب الجاموسة او تنظيف الدار او تحضير « لقمة » لاختوتهن الذكور ثم يقطعن عدة كيلومترات سيرا على الأقدام للوصول الى المدرسة ومع كل هذا كن يأتين مبكرات قسّمن أنفسنا الى مجموعات وانزلنا الكتب من الارفف ونفصناها ونظفنا الارفف وغسلنا النوافذ بمحطوم المياه وحككنا الارض بالماء والصابون وفرشة السلك الخشن ثم أعدنا الكتب بعد ان رتبناها وصنفتناها واكتسبت البنات خبرة عظيمة وارتبطن بالمكان وصرن يألفنه ويشعرن ان هذه الكتب هن ثم ان عملنا معا خلق بيننا علاقة جميلة لم تخطر لي ببال

— والناظرة ؟

— لو رأيت وجهها ! كانت ستموت غيظا وكأننا بعملنا هذا نتعدى على منطقة نفوذها المطلق او نعبث بقوانين الكون ونواميسه ولكنها لم تجرؤ على التدخل فقد اعطانا امين المكتبة موافقته وتحملت انا امامه مسئولية العهدة كاملة تعرفي ياسلمى لقد فتحت هذه التجربة امامي آفاقا جديدة للعمل بالامكان ان اتعاون مع الطالبات فى الصيف فى مشروع نحو الامية او للتوعية الصحية سوف استشير طه فى الموضوع

— طه من ؟

— الشاب الذى حدثتك عنه

— آه . بالناسبة هل يلبس بدلة ؟

— لا

— الحمد لله ، أصل سعيد عقّدتني !

— ننام ؟

سألت بشرى وهى تتشاءب

— لا سنبقى لمشاهدة الفجر

خرجتا الى الشرفة وكان الفضاء مازال بنفسجيا به لسعة برد محببة
قالت سلمى

— هل تذكرين ايام كنا نسهر للمذاكرة معا ونحن فى الثانوية العامة والنوافذ
المضاءة التى كنا نحصيا ونقول « وراء كل نافذة ولد او بنت مثلنا تستعد
للامتحان

— وذلك الشاب أتذكرينه ؟

— طه ؟

ضحكت بشرى للمفارقة فلم تكن هذه المرة تقصده راحت تذكر
صديقتها

— لا ، الشاب الذى كان يطل من تلك النافذة التى هناك ويظل ينظر فى

انجأنا حتى فاجأك بوقوفه تحت البلكونة ذات فجر هل تذكرين ؟

— أذكر وأذكر انى ايقظتك من النوم ونقلت لك ماقاله « وعهد الله ماانت داخله انا لا اعرف اسمك ، ولا اعرف اى شىء عنك ، لا اعرف الا انك مثلى تسهرين الليل للمذاكرة أنا احبك » ما ان نطق بهذه الكلمة حتى داهمنى الخوف وطرقت باب الشرفة وسمعت من وراء الباب يقول « انك تسرقين منى وقتى وهذا حرام أنا لم افعل لك شيئا ولكنى اجلس للمذاكرة فتأتينى صورتك وتستحيل المذاكرة انك تسرقين وقتى وهذا حرام ! » وركضت لأوقظك

— وحين حكيت لى لم اصدقك وبقيت لعدة ايام اعتقد انك اختلقت الحكاية وانك تمزحين معى

— حتى رأيته بنفسك يقف تحت الشرفة ذات فجر وقلت لى حرام عليك ياسلمى

— فقلت لى « انه شاب فى سننى لايملك لى شيئا ، ليس بإمكانه ان يخطبنى ولا ان يتزوجنى ! »

— ألم يعلمونا ان هذا هو عين العقل ؟!

وقفت الفتاتان متجاورتين تسندان اذرعهما الى السياج الحديدى للشرفة وتتطلعان الى الوهج البرتقالى عند خط الأفق تمنى بشرى لو ان طه كان معها ليشاهد جمال المشهد أما سلمى فقد كانت تتساءل : « ترى أكان الذى علموه لنا هو عين العقل ؟! »

وصال

□ □ لم تكن بشرى تعرف ان كان طه حين يأوى فى الليل الى فراشه
يبادلها ذلك الحديث الهامس الطويل الذى يحيط بكل تفاصيل يومه ويؤرقه
افتقادها والحاجة الملحة اليها ، لم تكن تعرف ان كان يكن لها مشاعر كتلك التى
تكنها هى له لم تكن واثقة الا من شىء واحد فقط هو انها تحبه ولا تجرؤ على
مصارحته بما فى نفسها

وعندما التقيا فى ذلك اليوم كان طه صامتا الى حد الوجوم

— مابك ؟

سألت

— لاشىء !

أجاب

— ولكن وجهك شاحب

— ربما كنت مريضا

قالها دون ان يرفع عينيه عن كوب الشاي الذى بين يديه .

— بشرى ، أردت ان اقول لك هذا الكلام منذ فترة ولكننى كنت دائما اعدل عنه واقول لنفسى « ياولد هذه مشكلتك فلماذا تثقل عليها وتخلق حرجا وتربكها وترتبك » ثم اعود فأقول « انها تهتم بأمرك ياولد وان كان الامر خلاف ذلك فلا بد انك غبى او مجنون » اقول ان امرى يشغلك ثم اقول ان امرى لا يشغلك

بشرى ، عندما اجلس للقراءة والكتابة كما اعتدت كل مساء يفاجئنى ويدهشنى ويشككنى فى سلامة عقلى اننى انتظرك أصيخ السمع كلما طرق باب سيارة امام البيت وكلما دبت خطوة على الدرج اقول أتت ! انتظر وكأننا على موعد او كأنك تركتني بباب البيت لتشتري شيئا من البقال المجاور وتلحقى لى او كأن هذا البيت بيتك ومن المنتظر والمتوقع والطبيعى ان تعودى اليه انتظر ولا تأتين واقول « ياولد انت بلا شك مجنون فهى لاتعرف عنوان البيت لكى تأتى ولكنى رغم ذلك انتظر وحين يوغل الليل يجتاحنى البؤس ، بؤس الايتام واقول « ياولد انت تحبها كأنه ليس لك فى الدنيا الا هى »

رفع رأسه لأول مرة وسألها

— بشرى ، هل تريدننى ؟

وكانت بشرى تبذل جهدا مضنيا لكى تقاوم رغبتها فى القيام من مكانها لكى تأخذ هذا الولد بين ذراعيها وتضمه وتقول له انها تريده ، كما لم ترد شيئا فى حياتها وكان قاسيا ان يدور هذا الكلام هكذا فى مكان عام مدت يديها اليه عبر المائدة وامسكت بيديه ثم مالت بجذعها كثيرا حتى لمست كفيه بشفتيها

وقبلتهما بسرعة ، قبله سريعة ، مختلصة ، واعية بالمكان

ثم غادرا المقهى سارا متجاورين وقد تشابكت ايديهما وظلا صامتين
حتى قالت بشرى

— لو كنت اعرف انك تنتظر لجمت فكرت مرات عديدة في زيارتك

— تمزحين ؟

— لو دعوتني الآن لشرب الشاي معك في البيت سأتي !

في اليوم التالي التقيا لكي يصحبها الى بيته أدار المفتاح في الباب وهو
يقول « لا بد ان تنهري بنظافة البيت لأنني لم افعل شيئا منذ لقائنا بالامس سوى
ترتيبه »

دخلا الى صالة صغيرة تتوسطها مائدة خشبية عليها اناء زجاجي يحمل
باقة من الورد الأحمر

— هذه المائدة عمرها ثمانى سنوات من يوم ان استأجر لنا الى رحمه الله هذه
الشقة واثنها لنا استخدمناها انا وخالد كائدة للطعام ، وفي المذاكرة
والقراءة ، والكتابة ، ولعب الورق ، والطاولة ، والشطرنج ، والدومينو ،
وتقشير الخضروات ، واستخدمت مرات للنوم ، ولكنها المرة الاولى التي
تحمل زهورا !

كان وجهه متوردا وهو يضحك وطلب منها ان تجلس الى أن « يقوم

بالواجب « ذهب وراحت هى تتأمل الارفف الخشبية التى تحمل كتبنا تتفاوت أحجامها وتغطى حائطا بأكمله

عاد حاملا صينية عليها كوبان من الشاى وطبق به قطع من الحلوى وضعها على المائدة وجلس بجوارها وهو يقول انه تأكد الآن تماما ان امه دعت له فى ساعة كانت كل طاقات السماء مفتوحة ضحك وضحكت وقال ان اسم امه عزيزة وان الجميع ينادونها « بأُم طه » وانها أم رائعة وان اباه كان رجلا حكيما رغم انه لم يكن يقرأ او يكتب

— عندما نجحنا فى الثانوية العامة انا وخالد ذهب اى الى اسبوط واشترى ثلاث تذاكر للسفر الى القاهرة وفى يوم من ايام شهر اغسطس شديدة الحرارة حملنا حقيبة واحدة بها كل ملابسنا واوراقنا وركبنا القطار وجئنا قدم لنا اى اوراق الالتحاق بالجامعة واستأجر هذه الشقة واشترى لنا بعض الاثاث المستعمل ثم جلس هنا فى مكانك واجلسنا امامه وقال « أنا لن اوصيكما انت ياخالد وحيد امك حين مات ابوك لم تتزوج ولم تذهب الى بيت اخوالك وشقيت حتى جعلت منك رجلا وانت ياطه ولدنا البكر ، فلاحك يشرفنا ويرفع رأسنا وسط الناس وانما رجلان ، والرجل ليس له سوى شرفه امك ياخالد تقتطع من قوتها لتعلمك وانت ياطه تعرف اننا سنقتطع من قوت اخوتك لتذهب الى الجامعة ولكن لماذا أقول هذا الكلام ؟ هل له داع ؟! لستم اولاد حرام ، لا والله بل رجال من صلب رجال ! »

ثم ونحن نودعه فى « محطة مصر » مال على وهمس فى اذنى « خالد اخوك ، هل تعرف معنى هذا ، ثم انه يصغرك بعام تقتسم معه كل شىء لأنه أخوك ثم تفضله عن نفسك لأنه الاصغر ولأنه يتيم هل اوصيك ؟ » ومن يومها وانا وخالد نقيم معا . هو دخل كلية الهندسة وانا

دخلت كلية الاداب ، هو اصبح مهندسا وانا اصبحت باحثة اجتماعيا ولما قامت الحرب كنت ايضا مثله مجندا هو لم يعد وانا عدت ؟ هل تشرين كويا آخر من الشاى ؟

سألها طه ولم ينتظر الاجابة بل دخل الى المطبخ حاملا معه ابريق الشاى الفارغ وعندما عاد سأله عن أمه

— امى فى البلد زوجت البنات بهية ونوارة وبقي معها الاولاد ، محمود يفلح الارض وسليمان فى المدرسة سأريك صورة امى

دخل الحجرة الملحقة بالصالة ثم عاد وفى يده صورتان

— هذه صورة خالد

قالها وهو يمد لها يده بصورة لشاب دقيق القسمات له وجه مستدير وشارب خفيف كالزغب

— وهذه صورة امى التقطتها لما دون ان تعرف وحين رأتها احتجت على وقالت « اخص عليك ياطه تطلعننى فى الصورة وشعرى مكشوف ! »

استدارت بشرى لتتطلع الى وجه طه الذى كان يقف وراءها لترى ان كان فى ملامحه شىء من ملامح أمه

— انك لاتشبه امك !

— لا امى جميلة كما ترين !

ضحكت وكان هو لايزال ماثلا ينظر الى الصورة الموضوعة على المائدة امام
بشرى الجالسة مال اكثر وهمس

— بشرى ، انا احبك

تعانقا ، تعانقا طويلا وبدا لبشرى وهى تضمه اليها انها قضت عمرها كله
راكضة الى اللحظة القرب هذه ، ضمته اكثر ثم انتزعت نفسها قائلة

— ننزل ؟

— ننزل

قبل ان يغادرا البيت دعاها طه لمشاهدة حجراته المطبخ الذى اجتهد
فى ترتيبه ، الحمام الصغير الذى بنت العصافير اعشاشا على الحافة الخارجية
لشبابكه الصغير ، حجرة النوم بسريرها المتجاورين « هذا سريرى وهذا سرير
خالد » قال طه ثم اشار الى الدولاب الخشبى العتيق ذى المرأة الكبيرة التى تغطى
بابه والذى ينتهى بدرجين كبيرين يعلو احدهما الآخر « هذا درج خالد
وهذا درجى » ثم فتح النافذة العريضة وجعلها تطل منها لترى محل الفول بالعمارة
المجاورة « فى الصباح أضع علبة بلاستيك فى السلة وعشرة قروش وأدلى السلة
وأنادى على عم احمد بائع الفول فيأخذ الفلوس ويملا لى العلة بالفول ويضع معها
رغيفين من الخبز البلدى »

— ننزل ؟

— ننزل

ونخرج الى الشوارع

□ □ □

٨

القلق
يلازم قلب الأم

طالما كررت شمس لنفسها ان الأمور لن تبقى دائما على ما هي
عليه سيكران وسيعوض الله صبرهما خيرا وستراهما صالحين متعلمين ،
ساعتها ستأتى راحة البال وكانت تتعجل مرور السنوات وتنتظر

عندما مات زوجها احست انها هي التى تيمت وليس الطفلان كانت
فى الثالثة والعشرين وبشرى فى الخامسة وعلى ابن عامين ولما انقضت الايام
الثلاثة وتلاوة القرآن والعويل المتقطع وذهبت لابسات الحداد وحمل العمال الكراسى
الخشبية التى استؤجرت خصيصا للمعزين جلس الأهل لطرح
السؤال : ما العمل ؟

اقترح اخوها ان تنتقل بطفليها للاقامة مع اسرته « تحتاجين لحماية رجل قال « وفتح بيتين لضرورة له » ، وقال العم الاكبر للأولاد انه مادام موضوع انتقال شمس وطفليها مطروحا فالأفضل ان تكون الإقامة في بيتهم « شمس ابنتنا كما هي ابنتكم ووجودها مع أمي سيخفف عن أمي وعنهما « حرك اخوته الثلاثة رؤوسهم مهممين اشارة الى موافقتهم على رأيه الا ان اختهم توجهت اليها بالحديث « لاتركي بيتك يا شمس ! »

فاجأها هذا الكلام كله لأنها لم تكن قد فكرت بعد في معنى الفقد وكلما تقدم العمر بها شعرت بالامتنان لاقتراح رشيدة اخت المرحوم ، اخته التوأم التي ماتت حزنا عليه في نفس السنة — « ألف رحمة عليها وعليه » تمت

وبعد الأربعين بأيام جاءها العم الأكبر للأولاد قال

— لانقبل أن يدخل على أولاد أختنا رجل غريب يا شمس انت شابة جميلة والحمل صعب انتى اعرض عليك الزواج ، وهذا رأى أمي ولن استغرب دهشتك فأنا نفسى دهشت حين اقترحت على ذلك ولكنى فكرت فى الامر فبدا لى منطقيا لن اجد زوجة طيبة وجميلة مثلك وأخى كان غالبا على ، سأصون ذكراه بصونك وصون أولاده ، فماذا تقولين ؟

والآن بعد كل هذه السنوات تقول شمس لنفسها « لا لا لم يقصد الرجل الاساءة ، لقد أساء التصرف وأساء التوقيت وأساء لكنه ابدأ لم يقصد الاساءة » ومع ذلك فقد بدا لها الكلام ساعتها فى قسوة الموت المفاجيء لزوجها كان موته قد داهمها كما تدهم انسان سيارة ، صدمتها وأفقدتها اترانها وثقتها بأن الأرض ثابتة تحت قدميها ولكن ذلك العرض بالزواج يجرح كسكين يقطع فى الجسم فجأة .

وحين ترجع شمس الى تلك الايام لاترى نفسها وهى تنظف البيت وتغسل الملابس ، أو الصحنون او تحمل سلتها فى طريقها من السوق الى البيت ، ولا ترى نفسها قلقة وشاحبة يستعصى النوم عليها وكأنها هى المريضة وليس أحد الطفلين ، ولا ترى حتى اللحظات الجميلة الصاخبة التى يأتيا احدهما ركضا بخبر نجاحه فتحضنه وتضحك رغم غصة فى حلقها ورغبة فى البكاء لاتفهم لها سببا ولكنها دائما ترجع الى ذلك المشهد اليومى حول مائدة الطعام وقد تحولت الى مائدة للدراسة ويكون الوقت مساء الصغيران منحنيان على كتبهما المدرسية وهى جالسة بجوارهما ترتق جوربا او تحيك ثوبا او تقشر خضرة لغداء اليوم التالى وقد تغفو وهى تنتظر ان ينتهيا من دراستهما ثم تستيقظ على يد أحد الطفلين يربت على كتفها قائلا « قومى نامى فى السرير ياماما »

كان يبدو لها طوال تلك السنوات أن الخوف يتبدد عندما لايعود الأطفال أطفالا فكانت تعد الايام وتنتظر ولكنها الآن وهى تصعد الدرج وفى يدها سلتها التى تبدو منها أعواد الملوخية الخضراء ترى بوضوح أن القلق يلزم قلب الأم ، سواء كان الأولاد صغارا او كبارا ، لافرق

وضعت شمس سلتها على الارض وادارت المفتاح فى الباب ثم دفعته فانفتح حملت السلة واغلقت الباب وراءها

وضعت السلة فى المطبخ ثم اخرجت مصفاة معدنية وضعتها على المائدة الخشبية ثم اتت بجريدة قديمة غطتها بها ثم فردت صفحتين أخريين منها على الأرض بجوار الكرسي الذى ستجلس عليه أخرجت أعواد الملوخية الخضراء من السلة ووضعتها على الجريدة التى تغطى المائدة ثم جلست وبدأت تأخذ عودا بعد آخر تقطف منه الاوراق وتضعها فى المصفاة ثم تلقى به عاريا على الجريدة التى على الارض .

« من قال ان القلق يذهب ، انه يفيض » كررت شمس لنفسها وهى تفكر فى ذلك الشاب الذى « طلع لهم فى البخت ! » لم تفاجأ بالأمر حين حدثتها بشرى عنه كانت ترى طول الوقت ان شيئا يشغل البنت ثم فتحت معها بشرى الموضوع فقالت انه صديق تحترمه وانها تريد ان تعرفهما هى وعلى به ، ولم تقل اكثر ، ساعتها احست شمس بحرج واضطراب كأنها هى التى تحكى لأنها عن شخص تحبه وتوقف على طرف لسانها الف سؤال ولكنها لم تقل سوى

— الا تعتقدن انه من الافضل ان يلتقى بأعمامك اولا ؟

— لا ياأمى ، ليس هذا مهما ، المهم انت وعلى

واستغربت شمس كلام ابنتها ولما جاء الشاب ورأته استغربت اكثر هل ستتزوج بشرى ولدا ؟ انه يبدو اصغر منها ، ربما كان فى سن على كان ابو الاولاد ايضا صغير السن حين تزوجا ولكن لوجه ايدا للمقارنة كان رحمه الله طويلا ووسيعا جاء لخطبتها وهو يلبس بدلة وقميصا ابيض وربطة عنق جميلة

كان لامعا أنيقا ، عريس حقيقى وهذا الشاب يأتى كأنه ذاهب الى كليته الجامعية بينطلون وقميص بنصف كم نحيف جدا حتى ان مفاصله تبدو كالعقد ترى ما الذى اعجب بشرى فيه « لا لا الامهات لتقديم النصيح ولفرض الرأى أحيانا » وهذا الولد لا يصلح ! « أكدت شمس لنفسها وهى تحمل المصفاة الكبيرة التى امتلأت بأوراق الملوخية الخضراء وتفتح عليها صنوبر المياه لتغسلها ثم تصفيتها وتحملها الى الشرفة وتفرد صفحتى جريدة وتثر عليهما الاوراق لكى تصفى من الماء ونحف بعض الشئ » .

عادت شمس الى المطبخ وطوت الجريدة على الأعواد الخضراء العارية وألقت بها في صندوق القمامة ثم أخرجت من التلمية كيسا قماشيا منتفخا بالأرز ومربوطا بخيط فككت الخيط وفتحته وكيلت منه كويين افرغتهما في وعاء معدنى أعادت ربط الكيس بالخيط وارجعته الى مكانه ثم حملت الوعاء الى الصالة حيث جلست على الكرسي المجاور للنافذة العريضة لكي تتمكن من تنقية الأرز « الزواج صندوق مقفل » سألنا عن سعيد ، قالوا ممتاز ، وظيفته ممتازة ، اهله ممتازين ، دخله ممتاز ومع ذلك أشقى سلمى وعادت الى بيت ابيها بعد شهور من زواجها كان رأى على صائبا حين قال ان سعيد لايساوى شيئا وان زواج سلمى منه خطأ على رأى طه وتحدث معه طويلا وكأنهما صديقان وحين ذهب طه سأله عن رأيه فيه فقال « انه شاب يفهم » ، « يفهم ماذا ؟! » حملت الارز الى المطبخ ووضعت على المائدة الصغيرة ثم اتت بالطبيلة الخشبية من وراء باب المطبخ وفتحت درجا من أدراج التلمية وأخرجت المخرطة ثم أحضرت اوراق الملوخية الخضراء من الشرفة ووضعت كومة منها على الطبيلة وتربعت على الارض وامسكت باليدين الخشبيتين للمخرطة وبدأت تُعمل نصلها في الأوراق ببطء في البداية ثم بسرعة ودرية انحسر الثوب عن فخذيه ومال جذعها قليلا الى الامام وبدت على جبينها حبات من العرق وهي تواصل حركة يديها صعودا ونزولا الى اليمين واليسار فتقطع المخرطة هلالية النصل الأوراق الخضراء ثم تعيد تقطيعها حتى تصير كومة ناعمة من الخضرة الداكنة

ولما فرغت من ذلك قامت وغسلت المخرطة ويديها ثم جاءت بالأرز وغسلته وأشعلت الموقد تحت حلة المرق باللحم الذى سوّته في الصباح قبل نزولها الى السوق ونحت حلة اخرى وضعت فيها ملعقتين من السمن صفت الارز من الماء وامسكت بمحفنة منه وألقت بها في السمن المقدوح ثم امسكت بملعقة خشبية وراحت تحركها حتى احمر لونها اضافت باقى الارز وكويين وثلاثى كوب من الماء وقليلًا من الملح واحكمت اغلاق الحلة وخفضت شعله الموقد .

أت برأس ثوم وجلست بجوار المائدة الخشبية الصغيرة تقشرو « ما الذى اعجب بشرى فى هذا الولد ؟ بشرى بنت عاقلة ، هكذا كانت دائما حتى وهى طفلة فما الذى اصابها ؟ الحب اعمى ! تنهدت شمس وهى تضع حبات الثوم فى الهون وتدقه باليد النحاسية الثقيلة

كشفت على المرق وجدته يغلى فحملت الملوخية المخروطة والقت بها فى الحلة خفضت النار تحتها واشعلت العين الثالثة للموقد أخرجت طاسة نحاسية من التلمية ووضعت فيها ثلاث ملاعق من السمن ووضعتها على النار ولما قدح السمن أضافت له الثوم « بشرى صغيرة وهى امها عليها ان تنصحها وأن توجهها ولو كانت البنت تحبه !؟ » حركت الثوم الذى كان يقطع فى الطاسة ثم اضافت له الكزبرة فعبق المكان بالرائحة كشفت الغطاء عن حلة الملوخية وافرغت فيها التقلية دفعة واحدة وهى تشهق واحكمت اغلاقها على عجل كأن نكهة الاكلة سوف تهرب لو ظلت الحلة مكشوفة « تنعب عليهم حتى يصيروا كبارا ثم يأتى الاغراب ويأخذوهم منا ! » تنهدت وهى تغسل الطبلية من المادة الخضراء المخاطية العالقة بها وحتى ان وافقت أنا فإن اعمامها وأخوالها لن يقبلوا فمن هو هذا الولد لكى يتزوجها ؟! سوف يقولون قيمة ابنتك مدير او كبير ، والحق معهم ، أكيد الحق معهم ، هذا الولد لا يصلح ، كررت شمس وهى تطفىء النار على الملوخية والأرز وتغادر المطبخ

سحر المدينة

في البدء كانت الأشياء كلها مدهشة في عيني سلمى ، من المقعد الذى جلست عليه في الطائرة الى دورة المفتاح في باب بيت يخصها وحدها لم يغلبها التأثير ساعة الوداع في مطار القاهرة حتى عندما ضمتها شمس وهمست في أذنها « اعتنى بنفسك وارجعنى بالسلامة » غدّت الخطو الى الصالة الجمركية بقوة تقارب الزهو

في الأيام التالية كانت فرحة كطفلة تُركت على هواها تذهب الى عملها الجديد ، تنسكع في الشوارع ، تتناول طعامها فيما يحلو لها من المطاعم

والمقاهى تنزل على السلم الكهربائى لمترو الأنفاق وتصعد عليه ، يستوقفها الأخضر على الشجر وتأخذ قلبها أبراج الكنائس ومساحات العشب الممتد ، ترقب أهل المدينة المهرولين ومبانيها وحوانيتها وترتيبها وستّها وقانونها بعين الرضا والاندھاش

وأحيانا تشتري عددا من البطاقات البريدية تكتب عليها بضع كلمات الى الأهل والأصحاب لشمس كتبت أول بطاقة « لاتنلقى ياخالتي ، على غير العادة لم يصدق ظنك هذه المرة فأنا لا أشعر بالوحشة أنا سعيدة جدا قبلاتي »

كانت سلمى تتألق في الوحدة فلا أحد يأمر ولا أحد ينهى ، لا أحد ينتظر ويقول تأخرت تعود الى البيت ساعة يحلو لها ، تدير المفتاح فيدهشها الهدوء الذى يفتح عليه الباب

أحبت المكان ربما لاختلافه كان ضيقا بالمقارنة ببيت الأسرة وبيت سعيد مدخل صغير به حوض معدنى وموقد وباب يفتح على دورة مياه يفضى المدخل الى حجرة واحدة بها اريكة كبيرة تحولها فى الليل الى سرير ومقعدان وثيران ومائدة مربعة وكرسيان وعلى الحائط المواجه للأريكة أرفف خشبية عليها تليفزيون ومذياع ومسجل وبعض كتب أحضرتها معها

لشهور ظلت سلمى تختفى بالمدينة الجديدة أحبت مقاهيها المقاهى الصغيرة ذات الاثاث الخشبي الداكن والأضواء الخافتة وحيث يتحرك الرواد كالأشباح وسط المكان المعتم العابق بالدخان والمقاهى الفسيحة ذات المقاعدة العتيقة والاسقف العالية والزهات المتألقة الضخمة والنساء المسنات بالقبعات على الرؤوس والقفازات فى الأكف ، قبل العشق وصخب الشباب فى المقاهى الجديدة

تغطى موائدها المفارش زاهية الالوان كالمثلجات فى الصور على الجدران واصناف الكمك والحلوى خلف الواجهات الزجاجية العريضة

واستهوتها مطاعم الأكل السريع الهامبورجر والدجاج المحمر وشرائح السمك المقلى وصواني البلاستيك صفراء او حمراء او خضراء او زرقاء والعلب المعدنية للمشروبات الغازية واطباق الكرتون وفوط الورق وملعق البلاستيك تأكل وتشاهد مأخوذة بالصخب والحركة الدءوب ثم تحمل علبة الصفيح والكرتون والبلاستيك وتلقى بها جميعا الى علبة القمامة الضخمة وتعيد الصينية لامعة ونظيفة كما كانت

وقفت مشدوهة أمام البائعات الآلية الكبيرة تشتري ليس لأنها تريد ان تشتري ولكن لانها تريد ان تتفرج تنظر الى السعر المكتوب تحت لوح شيكولاته والرقم الخاص به ، تضع النقود فى الخانة المحددة وتضغط على الزر المعين فترى عبر الواجهة الزجاجية للبائعة الآلية الارفف المعدنية حاملات السلع الحليب والجبن والزبد والزبادى والحلوى والشيكولاته تتحرك بسرعة مدهشة ثم تمد يدها فى خانة جانبية لتلتقط لوح الشيكولاته تختار سلعة اخرى وتضغط على الزر وتكاد تضحك فى سرور طفولى

وسحرتها ثلّة فى الضواحي يؤمها السياح ، سحرتها اشجارها الوارفة التى تجهل أسماءها ونوع الثمار التى تحملها ، والزهور الحمراء والبيضاء والبنفسجية فى كل مكان ، أمام البيوت الصغيرة والمقاهى والمطاعم والحانات ، فى اصص على الشرفات ، فى براميل قديمة وصفائح ، وفى عربة خشبية لفلاح مات قبل قرن او قرنين

تنتظر عطلتها الاسبوعية بعد الظهر دائما تذهب ، لو كان الطقس صحوا ومشمسا ولو كان غائما ومطيرا أيضا تحمل مظلتها وتذهب . تنابع التواء

الشوارع وصعودها وتنتظر المساء لكي ترى مصابيح الطريق تضيئ أضواءها الليمونية على المارة وتنصت لعزف العازفين في المقاهي والمطاعم والحانات وتتمنى لو كان معها مايكفى من نقود لترتاد كل هذه الاماكن وتشاهد عن قرب الملابس التقليدية للنادلات والرواد المخمورين عندما تأخذهم النشوة فيغنون جماعة مع العازفين سحرتها الجذوع منتصبة في اشجار الطريق وفي بنية الحانات واسيجتها وفي خشب الموائد والمقاعد والاطباق سحرها النبيذ المعتق في اباريق الفخار وسحرتها الحانات العابقة بالدخان والموسيقى وانفاس الرواد

وأحبت الكاتدرائيات دازت برأسها لترى سقوفها الشاهقة وهي تحرق في رسومها وفي الزجاج المعشق للنوافذ وتستنشق رائحتها الرطبة النفاذة وقفت امام مفات الشموع المنذورة تتابع شعلاتها المرتعشة وقواعدها الشمعية البيضاء وقد ذابت وتداخلت تأملت نساء ساكنات على المقاعد الخشبية يصلين في صمت واعترتها رجفة امام تمثال المصلوب في العتمة الفسيحة وقد بدا لها أن به نبض حياة

ثم استيقظت سلمى ذات صباح خريفى غائم وقد داهمها الوعي بأنها غريبة وان المكان رغم صحبه وأضوائه موحش

ولكن الثلج حين نزل على المدينة صباح يوم أحد في نهاية شهر نوفمبر اعاد لها توقدها الطفلى فانطلقت الى الخارج لتلمسه بيديها وجفنيها وانفها وشفيتها « جميل جميل ! » راحت تتمتع كامرأة مأخوذة وتكتشف سلمى وهي تحرق في الأبيض الآتى من السماء الى الأرض أن الكون وديع كذلك النظرة في عيني مسيح بأيقونة أو كحمل ابيض على الزجاج المعشق للكنائس سارت في الثلج ووجدت نفسها تبسم ابتسامة واسعة لأول شخص تلقاه في الطريق ، قالت « أهلا » وابتسمت فرد لها سلامها نظرة اندهاش صارمة !

مخاوف شمس

هل تشابك الخيوط لتصل أم لتعقد ؟ ألح السؤال على شمس
وهي تفكر في اقتراح على بأن يعقد قرانه على امينة في نفس الليلة التي
يعقد فيها قران بشرى على طه ، وكيف تمنع ولماذا تمنع ؟ ثم أن الاولاد
يحكمون رأيهم وهم في نهاية المطاف احرار في حياتهم

ولكنها لم تكن فرحة كانت تعرف ذلك وتستغربه هل هو القلق فاض
فحجب كل شيء سواه ؟ وطلاق سلمى وسفرها كالغصة في الحلق لاتعرف
كيف تتخلص منها وبشرى وعلى كد العمر وحصاده « كل شيء قسمة
ونصيب ! » وبقيت رغم ذلك خائفة .

صحيح انها كانت تتمنى لبشرى شخصا افضل من طه ، أكبر في السن والمركز ولكن ألم تكن هي التي نصحت على بأن يخطب أمينة ؟ وهل كان بإمكانها عمل شيء غير ذلك ؟ منذ خرجا من السجن وهي تراهما يتبادلان تلك النظرات التي تفصلهما عن كل من حولهما اكثر من مرة أوقفا الحديث عند دخولها لم يعودا الطفلين اللذين نشأ في بيت واحد نشأة الاشقاء شيء جد على علاقتهما كانت كل يوم تحدسه وتراه وان فشلت في تحديده كانت واثقة من ذلك وقلب الأم لا يخيب

— يا على مالذى بينك وبين أمينة ؟

— لا شيء يا أمى

— يا على أنا أمك ولم تكذب على ابدا هناك شيء بينك وبين أمينة ولكنه أكد ان مابينهما زمانة وسياسة ولا شيء غير ذلك

— فقط ؟

— فقط !

لم تصدقه كان الخوف يملؤها ليس فقط لأن على ابنها بل ايضا لأن امينة ابنة منيرة وعبد التواب

— ويا على أمينة في وضع اختك شرفها من شرفك إقسم يا على ، إقسم ان تحافظ عليها كما تحافظ على بشرى

كرر أن مخاوفها بلا أساس ولكن المخاوف لم تتركها حتى تلك الليلة التي

وجدتهما يتها مسان في الظلام على السلم جفلت
— بسم الله الرحمن الرحيم ماذا تفعلان ؟

تلعثا وهل كان الامر يحتاج سؤالا ! في اليوم التالى قالت لعلى ان كنت
تريدها اخطبها نحن وبيت عبد التواب اهل ولو ان عمك عبد التواب هو الذى
رأى كما لكان ضريك وضربها وربما قتلكما او حمل اسرته وبحث له عن بيت آخر بعد
اسبوعين جاءها على وقال انه فكر في كلامها وانه لا يمانع في خطبة امينة لأنه
يعزها ويحترمها ثم انها متفاهمان تماما وهذا مهم

وملأت الدموع عيني عبد التواب وهو يقرأ الفاتحة وقال ان الله عوض
صبره في موضوع سلمى خيرا وقال « حين أعطيك يا شمس كأننى اقدم امينة
من يدى اليمنى الى يدى اليسرى امينة ابنتك يا شمس وانا اعرف مبروك يا على
ورينا يتمم بخير » وزغردت منيرة وجذبت مديحة على من عنقه وقبلته وهى
تضحك وتقول ان هذا ممكن الآن لأنه صار زوج اختها وهددها ابوها بنظرة
صارمة تجاهلتها وراحت تلح على شمس بأن تنفذ وعدها القديم بأنها سوف ترقص
وتغنى يوم ترى على عريسا وقالت شمس وهى تضحك انها سوف تفعل يوم
العرس

وبعد قراءة الفاتحة باسبوعين عادت شمس من السوق فوجدت البيت يملؤه
الدخان كأن به حريقا وماذا حدث ؟ سألت على وامينة اللذين كانا بالشقة .
قالت امينة

— لاشيء !

— كيف ورائحة الحريق تملأ البيت !؟

قال على

— لاشيء يأمى كتنا نغرق ورقه ، هذا كل ما فى الأمر

— ورقة ؟

تلعثا توجست شمس واريكها ارتباك الاولاد

— ولماذا تحرقانها ؟

تبادلا النظرات قال على

— نحرقها لأنها ممنوعة

— هل هى مزورة ؟

— أمى هناك اوراق بها كلام فى السياسة كلام تمنعه الحكومة ولو الحكومة وجدت هذا الكلام عند انسان فهى تدخله السجن فورا

— أوراق تُدخل السجن ؟!

للحظة بدا لها انها يستغلانها كادت تغضب هل صدقا ؟ هل كان ما بينهما هو فقط هذا الورق الذى فى السياسة ؟ هل دفعتهما دفعاً الى الزواج ؟ ثم ماهو موضوع هذه الوراق التى تودى بالانسان الى السجن ؟ وأى حكومة هذه التى تعاقب الانسان بالحبس على حيازة ورقة ؟ قضت ليلتها بلا نوم فى اليوم

التالى قالت لعلى

— أنا أملك اجلس هنا امامى وفهمنى

ولما تلعلم عاد اليها الوسواس هل يسخران منها ؟

كررت

— أريد ان افهم !

— اننا ضد الحكومة وهناك اوراق توضح لماذا نحن ضدها وتشرح رأينا للناس

— وماذا فى ذلك ؟!

— فيه يا أمى ، فيه الكثير أخذونا من الجامعة فى الفجر وحبسونا لماذا ؟

— لأنكم اختلفتم فى الرأى مع الحكومة

— ولما نعلن رأينا فى ورق ايضا يسرقونا الى السجن فهت يا أمى ؟!

والآن صار القلق قلقين والخوف مضاعفا « احترسوا يا أولاد » ، « كونوا حذرين » ، « مع السلامة » تودعهما وكأنه هناك احتمال ان يمسكوا بهما فى الطريق حين يتأخران قليلا يهبط قلبها وتقول حدث المكروه وتبقى فى الشرفة لانتزع حرج منها حتى تراهما قادمين وكأن الحديث الذى دار بينهم قد جعلها جزءا من العمل الذى يقومون به .

ولما عادت بشرى من السفر حدثتها في الأمر بصوت هامس كما يفعل على ،
وكانت تتوقع أن تقول لها أن عليًا طائش ومخطيء وأنها سوف تتحدث معه ، لكنها
قالت

— من يدري يا أمي لعل طريقته هي الأصح !

فهل تتصل الخيوط لتتشابك ام لتتفقد ؟ والآن يريد على ان يكتب
الكتاب « فكيف يا ابني وانت بعد تلميذ وليس هناك سوى معاش المرحوم
ومرتب بشرى صحيح ان منيرة وعبد التواب ليسا غريبين ولكن الاصول
اصول ، والمهر واجب ، والشبكة ايضا ، وامينة ابنتنا وواجب نقدرها » وعلى
يقابل كلامها بالمزاح ويضحك وهو يكرر مقطعا من أغنية « وأنا مالى يامه انا
عاوز عروسة »

وذات صباح نزلت شمس الى محلات الاقمشة واشترت قطعتين من الحرير
الايض ، وفي نفس اليوم بدأت تفصل الثوبين ، ثوب بشرى وثوب امينة

فرح الأولاد

□ □ وقفت بشرى امام المرأة لتلقى نظرة اخيرة على هيئتها فاجأها
جمالها ولم يكن ذلك قد استوقفها ابدا هل كانت فرحتها تنعكس اشراقا على
وجهها ام انه الثوب الايض الجديد وتصفيفة الشعر المَعْتنى بها وزينة العروس ؟

قال طه انها اجمل امرأة رآها في حياته فتورد وجهها ثم ضحكت وهي تحببه
بأن الحب اعمى فنادى على شمس وسألها ان كانت رأت اجمل من هذه المرأة
وجاء على وقال انه لايتفق مع طه لأنه لم ير ابدا اجمل من نفسه وانه سيسرق
الاضواء من الجميع هذه الليلة بما في ذلك امينة لأنه وسيم وانيق وصغير السن
وكالوردة !

ضحكت شمس حتى ملأت الدموع عينيها وشعرت بشيء كأنه الفرح
او الاعتداد كان على وبشرى جميلين فعلا كوردتين في أوج تفتحهما ، يأخذان
القلب وامينة ومديحة كانتا متألفتين تركضان هنا وهناك كأنه العيد حتى طه
بدا لها طيبا واليفا فهل انفتح له قلبها ؟

في الصباح جاء الاعمام والاخوال ، حضروا عقدى القران وشربوا الشرابات
واكلوا الحلوى وانصرفوا وفي المساء اقتصر الحفل على اهل الشقتين وكانت شمس
ومنية قد اعدتا عشاء يليق بالمناسبة تناولوه ثم جلسوا على المقاعد والابسطة
يثرثرون في صخب

قال طه لشمس

— يا حمانى اريد حلة

— حلة ؟!

ولكنه بدلا من ان يُفسر لها سؤاله قام الى المطبخ ، وأتى بآنية نحاسية
كبيرة وبدأ ينقر عليها ويغنى ثم قطع الغناء وقال انه على احدى البنات ان تقوم
وترقص لانه « ليس فرحا هذا الذى لايرقص فيه احد ! » .

طارت مديحة الى حجرة النوم واتت بطرحة هدها ابوها بنظرة ناهية ولكنها ربطت ردفها وبدأت تهز وسطها وهي تقول « ان لم ارقص في فرح بشرى وامينة وعلى فمتى ارقص اذن ؟! » رقصت ثم قال عبد التواب انه يكفى وذكر مديحة خالتها شمس بوعدا بأنها سترقص في غرس على تمنعت شمس ثم قامت وهزت جذعها هزتين وجلست وقد اصبح وجهها احمر كالطربوش « هاقد رقصت ، مبسوطة يامديحة ! » وفاجأت بشرى الجميع حين قالت انها سوف ترقص

كانوا صاخبين ، يضحكون بصوت عال ويتحدثون في نفس الوقت ويصفقون على « الواحدة ونص » يشارك بعضهم طه الغناء والبعض الآخر يطلق نكتة هنا وتعليقا هناك

ولكنهم ، حين استغرقت بشرى في الرقص بدأوا يتابعونها في هدوء كانت تتأيل بجذعها في انسياب مدهش وتحرك ذراعيها وساقها بقوة جذلة تلتقي مع غناء طه الذي راح يتدفق في قوة وبطء

علقت شمس قائلة انها لم تكن تعرف ان ابتها بارعة في الرقص الى هذا الحد وقال على انه « المخدوع » لأنه عاش كل هذا العمر مع اخته دون ان يعرف انها راقصة عظيمة وضحك طه وقال ان على « المخدوع » ان يصنع لهم شايا وقامت مديحة التي كانت تتغافز كقطة صغيرة لتلتقط صورا « لظه وبشرى » و « على وامينة » ، « لخالتي شمس » « لأمى ولى » و « للشباب وحدهم » « للبنات وحدهم » ، « للكبار وحدهم » ثم قذفت بآلة التصوير الى سيد لكى يلتقط صورة « لنا كلنا » وصرخت منيرة ان آلة التصوير كانت ستتكسر وعلق عبد التواب ان مديحة هوجاء اكثر من سلمى « وربنا يستر ! » .

شربوا الشاي على عجل لكيلا يتأخروا وسأل عبد التواب طه ان كان متأكدا من موعد قيام القطار وابتسم طه وهو يقول انه متأكد لأنه ركب قبل ذلك عشرات المرات ولأنه القطار الوحيد الذى يوصله الى « البلد » وقال على بزهو انه وامينة لن يذهبا معهم لتوديع طه وبشرى في محطة القطارات لأنهما سيخرجان

— الى أين ؟

سأل عبد التواب

— لاندري بعد ، ربما الى مكان على شاطئ النيل او ملهى

— ولماذا لاتأتيان معنا ؟

ضحكت شمس وهى تقول لعبد التواب ان يوحد الله فأمانة وعلى اصبحا زوجين على سنة الله ورسوله

غادروا البيت وانفصل عنهم على وامينة بعد ان قبلا بشرى وطه وذكرهما ان « السلام امانة » لام طه واخوته في البلد وركب الباكون سيارتا اجرة حملتهم عبر شارع القصر العيني ثم شارع رمسيس الى محطة مصر



الأسئلة

كثيرا ما كانت بشرى تفكر فى تلك الايام التى قضتها مع طه فى
قريته وتتساءل ان كان المكان قد اسرها الى هذا الحد لصفة فيه ام الذى
اسرها كان ذلك الفيض من المشاعر التى احيطت به

كان الأطفال ، أطفال متشابهون فى الوجوه السمراء والعيون الحاضرة
والاجساد النحيلة والاسمال التى تسترها ، قد احاطوا بسيارة الاجرة التى حملتهما من
اسيوط الى القرية وقبل ان يُنزلا امتعتهما كان بعضهم قد ركض عبر الزقاق الضيق
الذى يقود الى البيت ليُبشر .

وما ان دلفت من باب الدار وقبل ان تتبين ملامح المكان حتى اندفعت نحوها المرأة متلهلة واحتوتها بين ذراعيها وللحظة غابت بشرى في صدر المرأة الكبيرة وثنيات ثوبها الريفى الأسود لم تكن بحاجة لكى يقول أحد لها انها أم طه فقد عرفت ذلك للوهلة الاولى ، ليس من الصورة التى كانت تختلف ولكن بشيء كالغريزة والحدس

وقالت نؤارة ، اخت طه ، وهى تضحك ان امها قلبت البيت وهى تنظف وترتب وتعد وتحضر وتقول لها « هدى بالك يا أم طه البيت صار كالمرآة » ولكنها تواصل العمل وتقول انه لو كان الأمر بيدها لأعادت طلاء البيت او حتى بنته من جديد

قضت بشرى في القرية اسبوعين في النهار تروح وتجيء في البيت الذى امتلأ بالأهل والزوار ، وتقول وتسمع وتلمس وتحتزن وفي الليل ، فقط في الليل تختل بظه ، يأتيها وتأتيه ، يتبادلان الوصل يتحدثان همسا ويمارسان الحب همسا ، يجمع العشق بينهما لحظة ثم يُلجمه الوعى بأن الآخرين نائمون في الحجرة الملاصقة

بعدها يأتى السكون ، سكون ضاف يغطى المكان وجسديهما ويسكن اليها طه واضعا راسه على صدرها ويغفو وتبقى هى في حضرة المشاهد والاسئلة غير قادرة على النوم تستغرقها كل اللحظات الصغيرة التى مرت في دقائق او في غمضة عين تفكر في البؤس والذباب والحب والغبار وصرامة النساء ومعمار البيوت والجبل الأجرد الذى يشكل حدود المكان ، بيوت كالمعابد ، هندسة صارمة ، طوب نبيء ، مصفوف باقتدار ومطل بالطين ، جدران صماء تخلو الا من طافات صغيرة بيوت كالقلاع تنصل ابنتها عبر الاسطح كأديرة مقفلة في وجه الزمن والاغراب . شوارع وأزقة لاتلتوى بل تنحرف فجأة في خطوط

مستقيمة دائما فما الذى تقوله البيوت ؟ وما الذى تعنيه الأزقة ؟ ويبدو لبشرى
وهى مستلقية على ظهرها تحديق فى الظلام انها لو احسنت الانصات لسمعت
شيئا من اجابة فكيف ؟

والنساء كالبیوت هنا لا تخرج النساء حاسرات الرؤوس ، ولا يجلسن على
عربات الدور ، ولا يسرن فى الشوارع فردى نساء متسربات بالاسود ، اشكال
هرمية سوداء صغيرة تغمر الاجساد التى لا يظهر منها سوى اقدام تغطيها جوارب
سميكة من القطن الاسود واحذية سوداء رخيصة يعلوها التراب نساء حنطيات
وبنات يخلعن الاسود فى البيوت ليغربلن القمح ويطحنه ويعجنه ويكورنه ويرققنه
ويسوينه فى النار نساء صغيرات كأشجار الكمثرى والرمان تثقل فروعهن
الدقيقة كثرة الثمار ، نحيلات حتى وهن يحملن ، يضربهن ازواجهن ، وتزجرهن
امهات صارمات كالعابدين يتقن الحياة وطقوس الحداد نساء تفوح من ثيابهن
رائحة الحليب فما الذى تقوله النساء ؟

وصغار فى المدارس ، وصغار فى الأزقة ، وصغار فى الحقول أعواد نحيلة
دائما وعيون سوداء او بنية او عسليه او خضراء تتطلع حاضرة رغم الذباب فما
الذى تقوله عيون الصغار ؟

ثم يسرقها النوم من الاسئلة فترى حماما يملؤه بخار الماء الساخن وصبية عراة
يفركون اجسادهم بالليف والصابون ويضحكون والماء الساخن ينسكب متصلا
وغزيرا على رؤوسهم يجففون اجسادهم بالمناشف الملونة ويظل شعرهم يقطر ماء

ثم ترى ورقة بيضاء كبيرة بيد طفل يرسم عليها

— ما الذى ترسمه يا ولد ؟

— ماذا سترسم ؟

تلح ولكنه يبقى مستغرقا فى عمله دون ان يلتفت اليها وعندما ينتهى يأخذ لوحته ويذهب فتركض وراءه ولا تستطيع اللحاق به ترى مالىذى يرسمه الولد ؟ تسأل نفسها وتكتشف انه كان حلما فتقوم وتغسل وجهها وتبدأ يوما آخر

وتظل تسترجع تلك الزيارة الى بيت ام خالد التى استقبلتهم مهللة ، وبكت وهى تودعهم بالباب تخيلتها دائما امرأة كبيرة ، فارعة الطول ، ومسننة فوجدتها على العكس من ذلك تماما نحيلة وصغيرة ، رغم ضفيريها الفضيتين ، تتحرك بسرعة ونشاط ملفت

جلسوا فى حجرة الضيوف حيث الكنتان المتقابلتان الى يسار الداخل ويمينه وحيث صورة خالد على الحائط المواجه للباب ، نفس الصورة التى صارت تألف تفاصيلها الوجه المستدير والعينان المشرقتان والشارب الخفيف الذى لا يبدو لأول وهلة بجوار الصورة وفى اطار خشبى مماثل له لوح زجاجى كانت « شهادة استحقاق عسكرى للشهيد خالد عبد الله الانصارى » مكتوبة بخط عربى مزخرف

تحدثوا طويلا ، وأكلوا وشربوا الشاى وعندما ارادوا الانصراف استبقتهم ام خالد فبقوا وعندما قاموا بعد ذلك لكى يغادروا البيت احتضنت بشرى ثم صافحت طه وأبقت كفه فى كفها وهى تكرر ان النهار مرّ وكأنه غمضة عين ، وبكت



مقهى دافىء وجيد الانارة

فاجأها الظلام كشيء غير متوقع بل وصارم حين جاءت الى عملها فى الثامنة صباحا كانت السماء ملبدة بالغيوم والوقت كأنه السحر والآن اذ تخرج الى الشارع تجد الليل ساجيا ومستبا « يمر النهار دون ان المحه ا » قالت لنفسها بسخط لن تذهب الآن الى البيت غدت السير فى اتجاه محطة المترو ، نزلت على الرصيف وقفت تحديق فى النفق المظلم حتى رأت بقعة الضوء تكبر ثم ظهر القطار وحاذى الرصيف وتوقف ركبت وبعد محطتين نزلت سارت فى اتجاه السلم الكهربائى وتركت له نفسها ليعصدها حذقت فى الوجوه المقابلة لها على سلم الهبوط وجوه تباين ملامحها وتشترك فى التحديق فى اللاشيء

الذى امامها لفتح الهواء البارد وجهها وعنقها فأحكمت معطفها حول
جسدها ، ودست يديها فى جيبيها خرجت الى الشارع وسارت باتجاه
كشك الجرائد الذى لم يكن قد اغلق بعد ان ابتاعت منه جرائد عربية
وانجليزية ودستها فى حقيبتها وواصلت

تحب هذا الشارع الذى لاتدخله السيارات ويمشى فيه الناس على هواهم
بيطاء او مهرولين ليقضوا حاجة فى الشراء او المشاهدة او قطع الوقت وتؤنسها
المحلات التجارية الكثيرة التى تتلأأ واجهاتها بالأضواء المركزة على الملابس
والمأكولات المعروضة بذوق رفيع ومازالت الحوانيت ومحال الحلوى والمقاهى
مفتوحة

على بعد خطوات من سلم المترو كان شاب يلبس « بانشو » * أسود
يعرف أغاني بالأسبانية يحيط به الناس ويضعون بعض القروش فى قبعة مقلوبة
وضعها بالقرب منه كان للشاب عينان ضيقتان وشعر اسود طويل ناعم ووجه
حلو القسمات وكان صوته دافئا ومؤثرا وبدا لسلمى التى لاتفهم الأسبانية أن
كلمات الاغنية حزينة وضعت قروشا فى القبعة وسارت

بعد دقائق استوقفها مشهد امرأتين يحيط بهما عدد من المارة كانت
احدهما تغنى والاخرى تصاحبها على الجيتار الذى تستبدل به بين حين وآخر
مزمارا وكانت المغنية حبلى يبدو تكور بطنها رغم ثوبها الفضفاض ولم تكن تلبس
معطفا بل تحيط كتفها بشال صوفى ازرق أما المرأة العازقة فكانت تلبس بنطلونا
كحليا وبلوفر فى لون النبيذ الأولى تلم شعرها الطويل بشریط رفيع داكن « تشبه
بشرى » قالت سلمى لنفسها والثانية لها ايضا شعر طويل ضفرتة فى جديلتين

* عباءة شعبية يلبسها أهالى أمريكا اللاتينية .

كان شكل المرأتين وسط المحال التي تعرض آخر الموضات فى ملابس الرجال والنساء يبدو خارج السياق متميزا عنه المغنية الحلى لها وجه جميل وصوت دافىء وباللحن نغومة ملفتة

ودت سلمى لو تفهم الكلمات التفتت الى شاب يقف بجوارها سألتها بالانجليزية فسألها

— ألا تتحدثين الالمانية ؟

— لا ولكنك تتحدث الانجليزية أليس كذلك ؟

— لا أتقنها !

— هل كانت المرأة تغنى شعرا ؟

— نعم ، نعم ، شعر جميل جدا

— وماذا كانت تقول ؟

كان الشاب اطول منها قليلا ، عريض المنكبين قوى البنية وان لم يكن بديننا وله وجه عريض وعينان زرقاوان وكان يصفف شعره الاشقر الناعم بحيث يخفى بدايات لصلع

بدأت المرأتان فى مقطوعة جديدة . فتح الشاب عينيه واسعتين وضم

شفتيه واضعا يده امام فمه مشيرا لضرورة الصمت

كادت سلمى تذهب ثم عدلت مسلعة نفسها لمشهد المرأتين الواقفتين في
برد ديسمبر القارص تثيران في الناس الدفء والنعومة

حين انتهتا وضع الشاب قطعة فضية في منديلهما المفروش على الأرض
وحذت سلمى حذوه قال وهو يسير بجوارها

— أخشى ترجمة كلمات الاغنية فهي جميلة جدا وقد افسد كل شيء

قالت سلمى وهي تبسم

— شكرا على اى حال سأعود الآن الى البيت لو بقيت في الشارع
دقائق أخرى فسأتجمد !

عرض الشاب ان يدخل الى مقهى قريب ثم هو يخلع لفحته الصوفية
ويضحك

— لو لم تمنع تقاليد الشرق !

أحاط عنقها بلفحته ولفها مرتين واحكمها قام بذلك ببساطة وتلقائية

— ندخل المقهى ؟

— ندخل !

فى ضوء المقهى لاحظت سلمى انه اصغر مما تصورت ربما كان فى الثامنة والعشرين

قال

— اسمى يان وأنت ؟

— سلمى

ابتسم وهو يكرر الكلمة ببطء ويقسمها الى مقطعين

— سا لما من أى بلد ؟

— من مصر

جاءت النادلة فسألها ماذا تشرب ، فقالت انها تشعر بالبرد وتريد شايا

— شاي بالروم ، مارأيك ؟

ثم التفت الى النادلة وطلب اثنين واستغربت سلمى قبولها الجلوس مع هذا الشاب حتى قبل ان تعرف اسمه ربما كانت بساطته الشديدة هى التى اشعرتها بالألفة ، ولم يخب ظنها كان لطيفا وشديد التهذيب حدثها عن نفسه قال أن أباه وأمه يمتلكان فندقا صغيرا جدا فى قرية جبلية وانه ابنهما الوحيد وانه يعمل باحثا كيميائيا ويسكن الآن العاصمة ثم ختم حديثه بضحكة بدت مفاجئة فى صخبها :

— وأنا طيب القلب ولم ار في حياتى اجمل من المصريات وأنت ؟

قالت سلمى وقد سرت اليها عدوى المرح انها توافقه تماما ،
ضحكت وضحك وطلبا كوين آخرين من الشاى بالروم وحكت له سلمى
عن نفسها وعملها فى فيينا ، ثم غادرا المقهى ونزلا معا الى المترو وقبل ان يفترقا
أرادت ان تعيد له لفحته الصوفيه ولكنه ابتسم وقال

— أرجو أن تقبلها وهذا يعطينى مبررا معقولا جدا لكى اراك مرة ثانية

ثم اكتست ملاحه بالجدية وهو يؤكد لها انه يمزح وان بإمكانها اعتبار
اللفحة هدية صغيرة واتى القطار وركبت ورأته وهو يقف على الرصيف يلوح لها
بيده

حداد

عادت سلمى من عملها لتجد رسالة فى انتظارها « لايد انها من خالتى
شمس » قالت وهى تمد يدها داخل صندوق البريد أخذتها وصعدت وما أن
أغلقت الباب وراها حتى فضتها كانت من سيد يخبرها ب وفاة والدها فاجأها
الخبر الى حد الصدمة ولم تكن قد فكرت فى احتمال حدوث ذلك أبدا أعادت
قراءة الرسالة لماذا لم يبرقوا لها ؟ سيد يقول انها ازمة قلبية اصابته فى الصباح وانه
مات قبل الظهر وانه يكتب لها بعد يومين من الحادث نظرت الى تاريخ الرسالة
كانت مكتوبة قبل ثمانية أيام أبوها اذن مات قبل عشرة ايام وهى لاتعرف .

مات وهى تسير فى الشوارع تحرق فى الورود وتتساءل عن أسماء الشجر ونوع الثمار فماذا تفعل الآن ؟ البيت يطبق على صدرها وفى حلقها غصة قررت النزول من البيت ولم يكن لديها ثوب اسود « وكل المحلات التجارية مغلقة الآن فهل انزل بثوب ملون الى الطريق ؟ »

ولكنها نزلت وسارت لانقصد مكانا وبها رغبة فى الانتحاب لو ان لها فى هذه المدينة اصدقاء تذهب اليهم لا أحد غدا صباحا سوف تذهب الى مكتب الطيران وتشتري تذكرة سفر الى القاهرة غدا تسافر لو امكن دخلت الى أحد المقاهى واختارت لها ركنا قصيا أمسكت بفوطه ورقية من الفوط التى على المائدة وأخرجت قلما من حقيبتها احتاج ثوبين اسودين وحذاء اسود وحقيبة سوداء ، كتبت سعرا تقريبا لكل واحد منها اضافت سعر التذكرة ذهابا وعودة ، جمعتهم ، لم يكن معها مايكفى جاء النادل فطلبت منه شايا اذن لابد من الانتظار حتى تقبض راتبها بعد عشرة ايام دمعت عينها والحت عليها الرغبة فى النشيج مسحت دموعها كان يجب ان تبقى فى البيت لكى تبكى كما تريد قالت لنفسها أى منظر هذا تنتحب امام الاغراب فى مقهى عام ! البيت يطبق على انفاسها والبكاء هكذا فى الشوارع يشعرها بالعرى تركت ثمن الشاى على المائدة وخرجت الى الطريق

لو أن لها اصدقاء تذهب اليهم وأمامها السبت والاحد حيث لازملاء ولا عمل فأين تذهب ظلت تمشى فى الطرقات حتى أحست بقدميها تؤلمانها ركبت المترو وعادت الى البيت

قبل أن تنام استعادت لأول مرة منذ سفرها وجه ايها وهو يودعها فى المطار فسالت دموعها فى صمت على وجنتيها ثم نشجت وانتحبت واعولت ولم تنتبه متى كفت عن ذلك وراحت فى النوم .

كأنه جرس دق فأيقظها فتحت عينيها ونظرت الى ساعتها كانت تشير الى الخامسة الا ربعا — أزاحت الستارة « لن تشرق الشمس قبل ساعة » صنعت لنفسها شايا وجلست تحتسيه وتبكي وتنتظر رأت شروق الشمس ثم ملأ الضوء الحجرة وهى جالسة فى مكانها ويدها على خدها ولما اقتربت الساعة من الثامنة قامت وغسلت وجهها وارتدت ملابسها ونزلت اتجهت الى احد المحال التجارية الكبيرة وصلته قبل ان يفتح ابوابه انتظرت ، ولما فتح دخلته واشترت ثوبين اسودين — لبست أحدهما — وحذاء حقيقية استبدلتهما بمخائها وحقيبتها ووضعت الملابس التى جاءت بها مع الثوب الجديد فى كيس نايلون كبير حملته واتجهت الى باب الخروج لمحت نفسها بملابس الحداد فى احدى المرايا المتعددة فى المكان تمتعت بارتياح ان ذلك ، على الاقل ، مناسب ما أن غادرت المحل حتى وقفت فى الطريق تتساءل « الآن الى اين ؟ »

فكرت فى الشاب المصرى الذى يعمل فى مطعم هامبورجر والذى حياها بحماس عندما عرف انها مصرية حاولت ان تتذكر المحل ولم تغلح قررت ان تمر على محلين او ثلاثة وتسأل دخلت واحدا ثم وقفت حائرة لاتدرى من تسأل كان هناك شباب اجانب يقفون خلف العارضة الخشبية يقلون اقراص الهامبورجر واصابع البطاطس ويصنعون الساندويتشات ويضعونها على اطباق او فى اكياس ورقية ويسلمونها للشارين « ليس بينهم مصرى » بدا لها ذلك واضحا مرت بأربعة اماكن مماثلة وسألت الجالس على الآلة الحاسبة ان كان هناك شاب مصرى يعمل معهم وكانت الاجابة دائما بالنفى أحست سلمى فجأة بسخف ماتقوم به تبحث عن هذا الولد كأنه أخوها الذى اضاعته مع انها لاتعرف عنه اى شى ولا حتى اسمه

عادت الى البيت ضيقة بنفسها وبالصداق الذى اخذ يشتد عليها تذكرت انها لم تأكل شيئا منذ غذاء اليوم السابق . أعدت لنفسها شريحة خبز

بالجين وصنعت كوب شاي واكلت ثم ابتلعت قرصى مسكن لآلام الرأس
بعدها جلست تنتظر استغرقت لذلك وتساءلت ما الذى تنتظره ؟
فكرت ربما ان ينقضى النهار

لم تكن تريد ان تفكر فى ايها وهو مسجى شمعى اللون على فراش الموت ولا
فى عويل اهلها وصوت مقرأ القرآن فى البيت « سأنزل الى الشارع » قبل ان
تفعل أخذت معها رقم تليفون ذلك الشاب التمسوى الذى التفته يوما فى الطريق
واستمعت معه الى غناء المرأة الحبل وعزف رفيقتها توقفت عند اول كشك
تليفون وادارت القرص « لا أحد يرد ! » حاولت مرة اخرى « انها ليلة
السبت فما الذى يبقيه فى المنزل ! » وضعت السماعة وسارت باتجاه البيت
وكانت تفكر ان امامها فى الغد يوما طويلا هو الاحد وانها لاتعرف كيف
ستقضيه .



شمس
تنتظر ساعى
البريد وتكتب الرسائل

كانت شمس وهى تتأمل الصور التى التقطت فى تلك الليلة
وترى جمال الأولاد تقول لنفسها ان الانسان لايشعر بالنعمة وهى بين
يديه وعندما تزول يراها واضحة كالنهار الآن فقط بعد مرور سنوات
تعرف كما كانت هذه الليلة ليلة العمر بحق كان الأولاد من حولها يبهونها
حرارة وامتلاء كدجاجة ترقد على بيضها ، ثم تفرقوا كأن يدا حاسدة
قبضت عليهم وبعثتهم فى الدنيا

سلمى كانت اول من فتح باب السفر ، ذهبت رغم الاعتراضات
والتحفظات والنصائح الأولاد يحكمون رايهم ثم يدفعون الثمن وندفعه نحن ايضا

معههم رغم اننا لم نختار ما لاختاروه بل كنا نعارضه

لم تكن تريد ابدا هذا الزواج المبكر لعلی ، تلميذ في الجامعة لم يثبت له
شارب بعد ، ويقول أتزوج وافقت على كتب الكتاب فعاد يُلح
— ما الفرق ، ما الفرق يا أمی بین ان تعيش امينة في شقة اهلها وان تنتقل
للاقامة معنا ، ما الفرق الا ان نسعد انا وهي بحياتنا معا

— يا علی لم تكمل عامك الواحد والعشرين ولم تتخرج بعد في الجامعة

— سأبلغه بعد شهر وسأخرج بعد شهرين

— عملك عبد التواب لن يوافق

— ولو وافق ؟

— لن يوافق ، هذا مؤكد !

— ولو وافق ؟

« ما الفرق يا أمی ، ما الفرق ؟ » تسمع كلماته كأنما نطق بها
بالأمس فتعلو شفتيها ابتسامة متعبة الفرق الأولاد يا علی الأولاد الذين جاءوا
بسرعة مدهشة

« جاءك ولد يا علی ، نسميه أحمد كأبيك » ويصبح احمد الوليد شغل
البيت وشاغله : « أحمد جائع » ، « أحمد شبعان » ، « أحمد بلل »

ملابسه » ، « الولد عنده اسهال » « الولد عنده حرارة » ، « الولد ييكي » ، « الولد ييتسم » يتحلقون حوله يطعمونه ويحمونه ويلعبونه ويدللونه ويخدمونه وينشغلون بأكله وشربه وأقمطته ولون برازه

ولم يكن أحمد قد نبت له سوى سنتين صغيرتين في فكه الاسفل عندما تيقنت امينة انها حبلى ثم وضعت مجدى وصار احمد ابن العام ونصف الذى يتبول فى ملابسه ولا يعرف من كلمات اللغة سوى ثلاث كلمات هو « الكبير » ومجدى هو « الصغير » بعدها جاءت جميلة « خطأ » قالت امينة وراحت تُهون الامر على نفسها بأنها ستعيب مرة واحدة وترى ثلاثهم معا

وامتلاً البيت مرة اخرى بالصغار وعادت الاقمطة البيضاء والملابس الصغيرة تغطى حبال الغسيل المشدودة على الشرفة وشمس موزعة بين الفرحة بالأحفاد وقلقها على امينة وعلى كانت الآن تعرف انهما حين يتهاامسان فى غفلة منها لايناقشان امور السياسة ولا يتدبران امر ورقة ممنوعة بل يفكران فى كيفية الايفاء بالتزامات الاسرة لكن الهمس ذات ليلة تحول الى صياح

— اخفضوا صوتكم ، ستوقظوا الاولاد ماذا جرى ؟

— إسألها !

— إسأله !

كانا منهكين قلقين لايعرفان ما العمل على يخرج فى الصباح ولا يعود الا بعد المغرب ، ويعمل فى وظيفتين وأمينة تقول انها تعبت من البيت وحياة البيت ، والاطفال ورعاية الاطفال . حتى كان ذلك اليوم الذى جاء فيه طه

وبشرى لتناول الغداء معهم . ولاحظت شمس ان على نادى بشرى واختلى بها ثم عاد وجلس بجوارها وبدا مرتبكا ثم قال

— أُمى ، لقد قررت ان اسافر

— تسافر ؟

— لن أحكى لك عن وضعنا المالى فأنت تدرين عنه اكثر مما ندرى أُمى ،
مرتبى بالكاد يكفى ثمن حليب الأطفال وزيارة واحدة للطبيب والديون
تتراكم وهناك عمل معروض على فى الخليج

وقفت كلمات على كالغصّة فى حلقها خنقتها الكلمات

— ولا أراك الا مرة كل عدة سنوات كما حدث مع سلمى !

ولكنها شعرت بالندم على ماقالته فما الذى بيد الولد كى يفعله ؟ مدت
يديها وامسكت بيديه قالت

— ربنا يسهلها لك يا على قلبى راضى عليك سافر يا حبيبى ولا تحمل هما
وأمانة والصغار فى عيني

وعندما سافر بكت طويلا وكلما آوت الى فراشها انسالت الدموع
من عينيها غزيرة ، فى صمت دائما حتى لا يسمعها احد ولكنها حين
ودعت امانة والصغار فى المطار ليلحقوا به بعد شهور لم تستطع ضبط
نفسها فانتحبت وعلا نحيبها . كان قاسيا ان يذهب على وزوجته واولاده

ولم يكن مجرد حزن ذلك الذى ملأها ، كانت تلحن ابو الزمن الذى يملى هذه الغربة وتلحن ابو النقود التى تحول دون ان تقطع تذكرة سفر لمصاحبة هذه المسكينة امينة التى راحت تتعثر بأطفالها الثلاثة وهى تؤكد على احمد ان يظل ممسكا بيد اخيه والا ضاع كانت شمس تلحن ابو الزمن وهى تلوح لهم بيدها مودعة وتراهم عبر دموعها يتعدون

لماذا خلق الله الانسان هكذا لايقدر النعمة الا بعد زوالها ؟ كانت تشكو من تعب الصغار فذهب الصغار ولم يبق لها سوى ان تجلس هكذا تقلب فى الصور وتنتظر ساعى البريد ويوم الجمعة الذى يأتى فيه طه وبشرى لزيارتها وتناول الغداء معها عندما سافرت امينة مع الصغار اقترحت عليها بشرى ان تنتقل للاقامة معهما ولكنها رفضت وقالت انه ليس بعد هذا العمر ترك بيتها « أنتم اصغر واخف فلماذا لاتأتيان للاقامة معى ؟ » ولكن طه رفض ولم تلح فلكل ان ينام على الجنب الذى يريحه طه طيب القلب وعطوف ولكنه عصبي المزاج لايعرف المرء ما الذى يشغله الشغل يشغله ولكن لماذا يعمل الى هذا الحد مادام يقبض نفس المرتب ؟ صعب فهم هذا الولد ولكنه طيب وهى تحمل همه كأنه على

ويوم قام العمال بالمظاهرات والقى القبض عليه بقى محبوسا شهرا كاملا ولما خرج قالت له ان عليه ان يكون اكثر حرصا لانه ليس تلميذا كما كان على يوم أمسكوه مع التلاميذ فى الجامعة وانه يفتح بيتا وسوف يصبح ابا وأن هذه مسئولية

ولكن طه فاجأها بقوله

— يا حمانى ، لماذا لم تتزوجى بعد موت المرحوم ؟

— وهل هذا ياطه سؤال ، عيب !

— ماقصدت ان اقلوه هو ان كل انسان شريف يظل مخلصا وفيما لشيء ما يرى انه اساسى جدا فى حياته بالنسبة لك كان المرحوم هو زوجك وأبو الأولاد ورغم انه مات وانت بنت ٢٣ سنة لم تفكرى فى الزواج من بعده

— وأنت لما تدخل السجن تكون مخلصا لمن ١٩

— ليس السجن هو المسألة ، انما هى الايمان بأشياء واتمسك بهذا الايمان حتى ولو كان ثمن ذلك هو السجن او ماهو اصعب من السجن

قال كلاما كثيرا فهمت شمس بعضه ولم تفهم بعضه الآخر تكلم عن الوفاء لأهله ومن هم فى وضع اهله ولصديقه خالد الذى قتله الاسرائيليون فى الحرب وقال ان الاصيل يصون ذكرى أخيه ومن لايفعل يجعل من موت اخيه موتين ورغم انها تأثرت وقالت له « عداك العيب ياطه » الا انها شعرت انه عنيد اكثر من على واحست بالخوف فما الذى يحدث لو ورط هذا الولد نفسه فى المشاكل فتجد بشرى نفسها وحيدة ترى الصغار ؟ هاهى بشرى حامل ، من يدري لعله يهدأ ويعقل حين يأتيه الولد

جمعت شمس الصور واعادتها الى الصندوق المعدنى الملون الذى تحتفظ بها فيه غسلت وجهها وغيرت ملابسها وحملت سلتها ونزلت الى السوق

بشرى وطه يجبان البامية وورق العنب ، وسوف تصنع لهما ايضا صينية كنافة ستشترى الآن كل مايلزمها وغدا تقمع البامية وتلف الورق ، وتصنع الكنافة يوم الجمعة صباحا فيكون كل شيء جاهزا ومعدا وتتفرغ هى للجلوس

وكانت شمس وهى عائدة من السوق الى البيت تفكر انها قد احضرت كل ما تحتاجه ولم يبق سوى الخبز الذى سوف تشتريه فى حينه وما ان تجاوزت البوابة الحديدية للبيت حتى سمعت صراخ المرأة الاجنبية فعرفت ان مشاجرة جديدة دبت بين منيرة وزوجة سيد هرولت الى شقتها ووضعت السلة ثم عادت فنزلت الى شقة الجيران طرقت الباب فلم يفتح احد ثم عادت فطرقت بشكل متصل حتى فتحت لها كريستينا وكان وجهها محتقنا ألقت شمس عليها السلام ولكنها لم تجب ودخلت الى غرفتها وطرقت الباب بعنف وراءها

وجدت شمس منيرة تنتحب وعندما هدأت بعض الشيء قالت لها ان كريستينا استيقظت عكرة المزاج وانها راحت تسب سيد واليوم الذى تزوجته فيه « ولما قلت لها ان هذا لا يصح وان عليها ان تحترم وجودى ، بدت كالثمرة الهالكة وبدأت تشتمنى بأقذر الشتائم » تطلعت منيرة الى شمس فجأة كطفل مندهش « ولكن يا شمس من اين تعلمت هذه المرأة كل هذه الشتائم الفظيعة انها تكاد لا تعرف العربية ! » وعادت تنشج وتلعن الزمن الذى أذلها بعد موت عبد التواب « والأولاد كفلتهم يا شمس كفلتهم تماما ! » وشمس تهدئها وتهون عليها وتطلب منها التوقف عن البكاء وعيناها هى نفسها مغرورتان بالدموع ثم دعته للصعود معها « وعندما يأتى سيد فى المساء نتحدث معه ونرى لهذه المشكلة حلا »

صعدتا معا وتناولتا غداءهما معا وشربتا قهوهتهما وتجاوزتا اطراف الحديث ولكن الوقت كان يمضى بطيئا فى انتظار عودة سيد ولما جاء بدأت منيرة تبكى من جديد وقالت له شمس ان هذه الحال لا يمكن ان تدوم وانه ، ان كان يرغب فى الإقامة مع امه ، أن يؤدب زوجته . كلمته شمس بصرامة كأنها شمس الاولى التى

تزرع الصغار وتوخيهم وتأمريهم وتنهيمهم وابتسم سيد ابتسامة اقلقتها وقال انه بعد قليل سيحضر كريستينا لتعذر لأمه وينتهي الموضوع

فتحت شمس التلفزيون وجلست مع منيرة لمشاهدة المسلسلات ثم قامت وأعدت « لقمة » للعشاء ثم صنعت شايا ولما تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ولم يأت سيد قالت لمنيرة « قومي لننام » ولاحظت ان وجه جارتها كان شاحبا

« هل صحيح ان الاولاد كفلتهم ؟ » تساءلت شمس وهي تتقلب في سريرها غير قادرة على النوم لم تصدق طه يوم قال لها ان سيد « وسخ » وانه يقوم بأعمال مشبوهة قالت لطه ان بعض الظن اثم ولكنها كانت تعرف ان سيد له دخل كبير رغم انه تخرج من الجامعة في نفس السنة مع علي ، وانه اشترى سيارة جديدة فاخرة وانه يسافر كثيرا ولا أحد يعرف الى اين قال لأمه انه يشتغل بالتجارة فصدقته هي ايضا صدقته وكذبت طه ثم اتى بهذه المرأة طول في عرض وشقراء وجيلة ولكن كل هذه البذاءة والشراسة ، ألم يكن لها أم تربيا ؟! الله وحده يعلم من أين اتى بها سيد « استغفر الله العظيم » تمتعت شمس ولكن هذا الكلب سيد لا يصعد ليحبر خاطر امه نفرض ان كريستينا رفضت الاعتذار لحماها الا يأتي هو لمراضاتها ؟!

ولم يأت سيد لا تلك الليل ولا الليالي التالية وكان رأى شمس الذي نقلته لمنيرة ان تنزل وتدق الباب وتقول لسيد وزوجته ان البيت بيتها وان كانا يريدان احترامه واحترام وجودها فيه فليبقيا وان كانا لا يريدان فليذهبا ولكن منيرة بكبت بحرقه وقالت ان عبد التواب مات وسيد مات والبنات كل واحدة في حالها وغربتها وانه ملعون ابو الشقة والذي يريدنا واقترحت عليها شمس ان تبقى للإقامة معها وألحت ولكن منيرة قالت انها فكرت في الامر وقررت ان تذهب للإقامة عند

— عندك ورق ومظاريف ؟

— عندى

— وورق كربون ، الورق الاسود الذى يطبع نسخا

— لا

— سأذهب لشراء ورق كربون

ونزلت منيرة فى الحال قبل ان تشرح لشمس المندehشة معنى طلبها ثم عادت وهى تحمل ورقتى كربون ودفتر رسائل ومظاريف

— قلت ان الورق والمظاريف التى عندك قد لاتكفى واشتريت ايضا طوابع بريد جلست منيرة لتملى على شمس رسائل للبنات ولأخوتها فى المنصورة

— اريدك ان تكتبى رسالة من ثلاث نسخ للبنات ، واحدة لسلمى ، وواحدة لأمنية ، وواحدة لمديحة وأملتها منيرة خطابا طويلا نقلت فيه للبنات كل ماجرى منذ أن أتى سعيد « بالحواجاية » هكذا فجأة وبلا مقدمات وقال « هذه زوجتى ياماما وسوف تقيم معنا » وحتى ماشاهدته شمس بعينها مرورا بنجوم الظهر التى أرتها لها المرأة فى الشهور الستة التى اقامتهم معها وأخبرتهم بقرارها بالاقامة فى المنصورة وطلبت منهن ان يكتبن لها على عنوان اخيها الاكبر عبد العال .

ثم أملتھا خطابا آخر الى اخيها الحاج عبد العال تحكى له فيه ماجرى
وتطلب منه ان يجمع اخوته الستة ويقرأ كلامها عليهم واملت « وأسأل
عندكم يوم الخميس في قطار الساعة الرابعة » وطلبت من شمس ان تضع خطا
تحت هذه الجملة وان تكتب بعد ذلك انها ترسل سلامها الى زوجة الحاج واولاده
وزوجات الاخوة الآخرين وأولادهم وذكرتهم بالواحد والواحدة لشمس التي
كتبت أسماءهم في صفحة كاملة



تحية العلم

استيقظت بشرى كماداتها مبكرة كادت توقظ طه ثم
عدلت « سأذهب اليه في عمله » غسلت وجهها وغمرت ملابسها
وافطرت ونزلت الى المدرسة

دق الجرس واصطففت البنات ثم ظهرت الناظرة في الشرفة المطلة على
الساحة فانتظمت الصفوف تماما وكف اللغط تقدمت ثلاث طالبات في خطى
منتظمة باتجاه العلم ، واحدة تسبق الاثنتين الأخريين قليلا وقفن تحت السارية
العالية ورفعن الاكف بالتحية وهتفت البنت الاولى بصوت واضح

وجهورى « تحيا جمهورية مصر العربية » ، أعادتها ثلاثا ، وفى كل مرة رددتها من ورائها بنات المدرسة المشربيات بأعناقهن يتطلعن الى العلم العالى المرفرف فى هواء ذلك الصباح الشتائى

وكما فى كل صباح نفذت تحية العلم الى كل البيوت المجاورة مرت عبر السواتر الخشبية للنوافذ المغلقة وعبر الابواب المقفلة منذ الليل بالمفاتيح والترابيس ، سمعها بائع الفول الواقف على ناصية الشارع والمرأة التى تصنع الشاى لعمال المنطقة كما سمعها بعض الذين لم يغادروا أسرهم بعد مستمتعين بدفء الأغطية

ثم علا عبر الميكرفون صوت الطالبات وهن يرددن النشيد الوطنى وانتشر الصوت فى فضاء الحى ، ابتلع ضوضاء الشارع الصباحى بمزامير سياراته وحديث العابرين ونداء الباعة

أشرفت بشرى على دخول طالباتها الى الفصل ثم دخلت وكانت كل طالبة الآن تقف بجوار مقعدها قالت « صباح الخير » فرددن التحية ثم جلسن بدأت الدرس ولما انتهت منه فكرت ان امامها ساعة قبل ان تبدأ درسها الثانى « سأمر بمكتب الناظرة » سارت فى الممر الطويل الذى تفتح عليه ابواب الفصول ولما وصلت الى السلم نزلت طابقيين ثم دارت الى اليمين وطرقت بابا ودخلت كانت « الست هدى » تجلس وراء مكتبها الكبير المواجه للباب رفعت عينها فرأت بشرى قامت لتلتقى بها فى منتصف الغرفة الفسيحة وهى تمد لها كلتا يديها لمصافحتها

— قبل لحظات فقط كنت افكر لماذا لم تأت بشرى .. كيف حال طه ؟

— يسلم عليك وعلى الدكتور ويعمل كثيرا وكلما رأته امي توبخني
وتقول يا بشرى انت لاتطعمين زوجك وهذا واضح !

ابتسمت الست هدى وهى تدعو بشرى للجلوس بجانبها على الاريكة
الجلدية الكبيرة وكررت

— هل طه بخير ؟

— بخير الحمد لله

— بلغيه سلامي وقولي له ان الدكتور يرغب فى رؤيته

وكانت الناظرة تشير الى زوجها دائما بكلمة « الدكتور » وكان طبيا
مقعدا يقارب الثمانين ويقضى يومه فى قراءة الجرائد والتعليق على ماورد فيها

— قولى له ايضا انه متبنىء خطير ماتوقع حدوثه قبل شهرين تحقق اليوم
حرفيا ، هل قرأت جرائد الصباح ؟

— لا ، ماذا حدث ؟

— رفعوا الاسعار ، تماما كما توقع ا

— رفعوا الاسعار ؟

— نعم اسعار الخبز واليوناجاز والبنزين .

تحدثنا في الموضوع وفي مواضيع اخرى ولكن بشرى كانت موزعة بين
ما نسمع ونقول وبين شعور كالقلق راح يتمكن منها شريت الشاى واستأذنت
وصعدت الى طالباتها ودرست حصتين ثم غادرت المدرسة

يومها ايضا كان يوما شتائيا ولكنه كان اليوم الاول في السنة الجديدة
وكانت قد قررت ان تذهب اليه في عمله ومعها هدية باقة ورد سارت من
المدرسة حتى محل الزهور ودخلت كانت أرضية المحل مبللة وكذلك احذية
العاملين فيه وكانت الزهور موضوعة في دلاء على الارض ورود بلدية حمراء ووردية
وصفراء ، براعم صغيرة وورود متفتحة وكبيرة ، قرنفل ابيض وقرنفل احمر ،
وأبصال بيضاء وأخرى حمراء وزهور عصفور الجنة وفروع خضراء من اشجار
الصنوبر الابرية

قالت للبائع انها تريد ثلاث ورود بلدية حمراء وفرعا واحدا اخضر نظر
الرجل اليها باستغراب

— خذى نصف دسته !

— لا شكرا ، أريد ثلاثا فقط !

ربط لها الورد بشرط ازرق رفيع وحملتها الى الطريق وهي تفكر ان البائع لم
يفهم، وتبسمت « لكن طه سيفهم ! »

سارت باتجاه محطة مترو حلوان وهي تفكر انها ستركب محطة واحدة من
السيدة الى باب اللوق ثم تكمل طريقها الى طه مشيا .

كانت متوجسة وهى تستعيد بشكل تلقائى كل تفاصيل ذلك اليوم قبل عامين عندما اشترت الورد ولم تستطع الوصول الى طه بسبب المظاهرات فعادت الى البيت ووضعت الورد فى آنية زجاجية ملأتها بالماء وأعدت غداء وجلست تنتظر ولكنه لم يعد انتظرت اليوم بطوله والليل ايضا وبعد أيام ذبل الورد وألقت به وظلت تنتظر ولم يعد طه الا بعد شهرين « الله يستر » تمت وهى تقترب من المحطة

عندما وصلتها رأت حشدا من الناس سألت « ما الخبر ؟ » فقال احدهم ان معاون المحطة يقول ان الخط معطل

— معطل ؟

— يقولون ان هناك مظاهرات عمالية فى وسط البلد وأن عمال حلوان قطعوا الخط

تدخلت فتاة فى الحديث

— بل يقولون ان الحكومة اوقفت القطارات لكيلا يلحق عمال حلوان بالآخرين فتشتعل المظاهرات اكثر

قال كهل صغير الحجم يلبس بدلة عتيقة

— وما شأننا نحن وعمال حلوان ، نريد ان نقضى اشغالنا

وسألتهم بشرى : ماذا ينتظرون اذن مادام الخط معطلا . أجابت سيدة

متبرجة أن المظاهرات قد تنتهى وتمشى القطارات من جديد

« سأركب الاوتوبيس » قالت بشرى لنفسها وهى تغادر المحطة ، « او امشى » وفكرت ان طه لابد لديه تفاصيل عما يحدث ، كانت الآن تسير باتجاه شارع المتديان المتقاطع مع شارع القصر العينى وكانت تشعر بنفسها موزعة بين الاستنفار والتوجس

سمعت صوت المظاهرة قبل ان تراها فأسرفت الخطو لكى تلحق بها ثم انعطفت الى الشارع ورأتهم قادمين

انتحت جانبا تراقبهم وهم يتقدمون باندفاع صاحب وبطىء ويهتفون ويلوحون بقبضاتهم رؤوس تتحرك ، رؤوس مكشوفة وحليقة وصلعاء وشعرها كثيف اسود ورمادى وابيض ، خشن ومجعد ومموج ، وأملس ومهوش ومصفف بعناية رؤوس معمة ومُطرحة ومربوطة بالمناديل العتيقة رؤوس تملوها الطواق الصوفية والقطنية ، المُفصلة من قماش الجلباب والمنسوجة باليد

وجوه كبار وصغار ورجال ونساء وجوه خشنة ومجعدة وناعمة وجوه قمحية ووجوه خمرية ووجوه بنية ووجوه سوداء الوجوه غاضبة والجباه مقطبة والافواه فاغرة والخناجر تملو بالهتافات الاجساد تنقلص وتموج فى عنف مكثوم ، تنقبض ثم تدفع بنفسها الى حيز جديد من الشارع اجساد نحيلة ، اجساد فارعة ، اجساد قصيرة ، اجساد جديدة ، اجساد مترهلة تسترها جلابيب « الكستور » المخططة والمنقوشة ، الفاتحة والداكنة ، جلابيب البيت وجلابيب القטיפية السوداء المحفوظة للمناسبات اجساد تسترها الثياب التقليدية وأخرى فى الثياب الوافدة البنطلون والقميص والبلوفر ، والجونلة والبلوزة والجاكيت اجساد مفردة واجساد تحمل طفلة او سلة او حقيبة كتب مدرسية .

لمحت بشرى صبيين — ربما كانا فى العاشرة — يسيران معا متشابكى
اليدين فى آخر المظاهرة كان وجههما وملابسهما مُلَطَّخة بشحم السيارات
وكانا هما ايضا يرفعان صوتهما بالهتاف سارت بجوارهما ، على هامش المظاهرة
وما ان بدأ المتظاهرون يتجهون يمينا الى شارع القصر العينى حتى سمعت هتافا
مدويا يأتى من الخلف التفتت فرأت حشدا يقترب كانوا من طلاب وطالبات
جامعة القاهرة ثم التحمت المظاهرتان ووجدت بشرى نفسها وسط المتظاهرين
الذين أصبحوا أمامها وخلفها وعن يمينها ويسارها ثم رأت الشاب النحيل المحمول
على الأعناق الذى يهتف بصوت جهورى وأخذت هى ايضا تردد الهتاف ،
بصوت خافت وعلى استحياء ثم بقوة وكانت الآن جزءا من حركة دافقة ومهيمنة
تدفعها مع الآخرين ، الذين بدوا لها بلا اول ولا آخر ، الى الأمام وكانوا
يقصدون مجلس الشعب وكلما اقتربوا منه تباطأت الأقدام وتقاربت الصفوف
وارتفعت الحناجر وتوحد الهتاف عاليا وهادرا وملحًا

احنا الشعب مع العمال ضد تحالف رأس المال
احنا الشعب مع العمال ضد حكومة الاستغلال

ورغم الحرس مشرعى الاسلحة وقوات الامن المركزى كان الصوت يصل الى
حكام البلد وراء الابواب المغلقة لمجلس الشعب ومجلس الوزراء والسكان والعاملين
فى العمارات القريبة ويتعدها الى شوارع جاردن سيتى الظليلة الهادئة فيسمعه
موظفو السفارات الاجنبية فى المنطقة والقاطنون فى شققها ونزلها فنادقها الفخمة
المطللة على النيل كان الصوت يمتد مدويا ومزلزلا من تمثال سيمون بوليفار حتى
ضريح سعد

وساعتها لم تكن بشرى تعرف ان مظاهرات عديدة كانت قد قصدت هذا
المكان نفسه واحاطت به وراحت تطالب .

كان العمال قد جاءوا من مواقعهم فى اطراف العاصمة من الجنوب
والشمال والغرب عمال حلوان وطره ، وشبرا الخيمة ، وعمال ماتوسيان والهرم
والمنيب

وجاء الطلبة من جامعة القاهرة فى غرب المدينة ، وجامعة عين شمس فى
شرقها ، والمعاهد الدينية فى شمالها ، وجامعة حلوان فى جنوبها ومن قلب القاهرة
القديمة ، من جامعة الأزهر ، جاءوا

وجاء الحرفيون وصغار الموظفين من الاحياء الفقيرة من مصر القديمة
والمدبح والسيدة زينب والقلعة والازهر والموسكى والعتبة وعابدين والشرابية وبولاق
وباب الشعرية وامابة والوراق والمنيب

جاء السمكرية والنجارون والميكانيكية والبناءون والكهربائية والحمالون
والنقاشون وباعة الجرائد

وجاءت ربات البيوت والعاملات والازامل والمطلقات

ولم تكن بشرى تعرف وهى تقف وسط هذا الحشد البشرى الهائل ان قوات
الامن المركزى قد اخذت تنتشر فى محاولة للتطويق

وفجأة سمعت فرقعات وصراخ ودبت فى الصفوف خلخلة ، وارتفعت غيمة
من دخان « انها قنابل مسيلة للدموع » بل طلقات نارية
ركضت انقباض وتراجع اعقبهما فورة تمدد شرس لكثلة بشرية تصهل وتصرخ
وتموج وتصطدم وتمند وتعلو :

احنا الشعب مع العمال ضد حكومة الاستغلال

جموح جريح ويستعصى

يادى العار يادى العار مصرى بيضرب مصرى بنار

كان الصوت الآن يأتهم من خلفهم ايضا ويعلو ويهيمن كان التلاميذ قد
صعدوا الى اسطح العمارات وراحوا يرشقون العسكر بالحجارة وهم يهتفون

احنا الطلبة مع العمال ضد حكومة الاستغلال

ثم بدأت الطلقات والخلخلة فى الصفوف ، والصراخ وراحت بشرى
تركض وهى تحاول ان تتقى ذلك الدخان الذى ينفذ الى العيون كالفلفل فتلتهب
وتسكب الدموع الغزيرة

وجدت نفسها جالسة على رصيف بجوار عدد من الشباب كانت عيونهم
حمراء وجفونهم ملتبة وكانوا مثلها يحكونها بأيديهم بشكل متكرر سألتهم ماذا
سيفعلون قالوا انهم سيحاولون الوصول الى أحد الميادين العامة ، ميدان التحرير أو
الجمهورية او العتبة او عراى لأن المتظاهرين لابد سوف يتجمعون فيها وعندما
قامت بشرى لتذهب معهم اكتشفت انها لاتلبس نظارتها بحث عنها وطلبت
منهم أن يعاونوها ولكنهم لم يجدوا شيئا لم يكن امامها سوى العودة الى البيت
حيثهم وافترقوا

سارت فى الشوارع الخلفية مرورا بضريح سعد ومنطقة المنيرة
كانت الشوارع خالية من المتظاهرين وان لم تخل من اثر لمرورهم حديث

بعض النسوة على ابواب البيوت وترديد الاطفال للتهافتات وهم يلعبون سارت
متعجلة كأنما تريد اللحاق بشيء وزاد من توترها وقلقها ضياع النظارة ولم تكن
قد خرجت بدون واحدة منذ سنوات لم تعد تدري كم ومع ذلك كانت ترى
مايكفى تمييز طريقها الى البيت

عندما فتحت لها امها الباب شهقت

— خبير ؟

جلست بشرى على اول مقعد صادفها كررت امها السؤال

— هل انت بخير ؟

— بخير ، فقدت نظارتي ، هذا كل مافي الأمر

— وطه ؟

— لا أعرف ، لم استطع الوصول اليه

— كيف جئت ؟

— مشيا

— من بيتك ؟

— لا من عند مجلس الشعب

— كنت في المظاهرات ؟

— نعم

— ولكن يا ابنتي العقل زينة ، أنت حامل ولم اسمع ان امرأة حاملا تمشي في
المظاهرات ! هل تشعرين بتعب

— لا !

— وانا طول النهار قلقلة على طه وأقول يارب سلم وأقول بركة ان على مسافر
ويطلع ان انت كنت في المظاهرات حرام عليك نفسك !

كان صوت شمس الذي بدأ حادا في بداية الجملة قد انكسرت حدته وان
بقي معاتبا سألت

— هل تأكلين ؟

— لست جائعة اشرب شايا لو سمحت

غسلت بشرى وجهها وغيّرت ملابسها وجاءت لتشرب الشاي مع أمها
التي قالت

— من الصبح والدنيا قايمة قيامة والناس لهم حق ، هل يأكلون الزلط ! كل يوم

غلاء غلاء البشر هجّت من بيوتها واتغربت والحكومة مسئولة ولو الدنيا
شعلت نار هي السبب !

توقفت دقيقة ثم واصلت

— لو طه عاقل كا يأتى الى هنا مباشرة أكيد لو ذهب الى البيت ولم يجدك
سيأتى الى هنا

— كنت أفكر ان أطلب من سيد أن يأخذنى بسيارته الى البيت أحضر نظارتى
الأخرى وأترك ورقة لظه انى هنا ممكن نذهب من الشوارع الجانبية

نزلت شمس لتسأل سيد وعادت بعد دقائق معدودة وكانت حانقة

— لم يقبل الذهاب ، سأذهب أنا !

— ماذا قال ؟

— قال ان الشوارع غير آمنة ، وانهم يحطمون السيارات وانه يستحيل على عاقل
ان يخرج من بيته فى يوم كهذا سأذهب انا !

— لا يا أمى ، تظلين انت هنا وانا سأذهب وسأعود غدا وهذا وعد

ساعتها انفجرت شمس

— هل جنت .. يابتنى المثل يقول « ولادة كل يوم ولا سقط العمر » وانا

ما صدقت انك حملتى لن نخرجى

— اذن الصباح رباح

وقامت شمس لتعد « لقمة » وهى تؤكد ضرورة ان تأكل بشرى شيئا ولو غصبت على نفسها أكلنا ثم قامتا لتناما

ولاحظت شمس ان ابنتها راحت فى نوم عميق ففكرت انها متعبة وتمتعت « رينا يستر » وكانت قلقة عليها وعلى جنينها ، وقلقة على طه ، وحانقة على سيد ، وتحمد الله ان على مسافر وتفكر ان هذه الحكومة لن توصلها لبر كل يوم زيادة فى الاسعار فماذا يأكل الناس ؟ هل يأكلون بعضهم ؟ وغدا ستهاجم الحكومة الناس وكأنهم هم المخطئون ! لعنت ابو هذه الايام الكرب وهذا الرجل وجهه علينا نحس ، فكرت ، حبس التلامذة وحبس طه وجوع الخلق فلماذا لا يأخذه الله ويريحنا منه !؟

ونامت شمس نوما متقطعا حلمت انها تبحث عن على ولا تجده وحلمت انهم يسوقونها الى السجن ثم حلمت ان بشرى مصابة بنزيف وكلما أغفت رأت كابوسا فتستيقظ وهى تقول « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » حتى طلع عليها الصباح

عندما استيقظت بشرى شربت شمس معها الشاى وقالت انها ذاهبة

— لن تفطرى ؟

— سأفطر عندما ارجع ، لن اتأخر .

وحملت سلتها وخرجت كان الهدوء خميما على الشارع وان كانت اثار معارك اليوم السابق واضحة فيه حجارة متناثرة وزجاج مكسر وسيارة محروقة

سارت على شاطئ « البحر الصغير » الفاصل بين الحى الذى تسكنه وجزيرة منيل الروضة حتى وصلت الى كوبرى الملك الصالح الذى قطعته وقطعت الجزيرة لتعبر كوبرى عباس الى الجزيرة وقبل أن تصل الى ميدان الجزيرة شاهدت الدخان يتصاعد فى سماء المنطقة وعندما اقتربت اكثر شاهدت الدبابات وعساكر الامن المركزى يطوقون الميدان ، ولكنها واصلت سمعت هتافات لم تتبين تفاصيلها بعدها جاءت الفرقعات ورأت شمس امرأة تهول فى ذعر ثم عدد من الشباب يتراجعون ويلتقطون احجارا من الارض ويندفعون ثانية فى اتجاه العسكر مرة اخرى علت الفرقعات سمعت احدهم يقول « رصاص رصاص ؟ » سألت وقد اربكتها المفاجأة قال شاب «رصاص وقنابل مسيلة للدموع » ثم اوضح ان هناك مظاهرة ضخمة من أهالى الجزيرة وساقية مكى والباطنية وماتوسيان وان العساكر يحاولون منعهم من التقدم ولكن شمس واصلت ولم يكن امامها الآن سوى مساحة مقفرة تماما من البشر تغطيها الحجارة المتناثرة والدخان ، فى نهايتها كان العسكر يصطفون مكونين سدا بشريا يحول دون مرور المظاهرة ولم يكن بإمكانها رؤية احد من المتظاهرين ولكنها كانت تسمع هدير الهتافات تماما كما كانت تسمع الفرقعات المتتالية ، واصلت

ركض جندى صغير السن فى اتجاهها وانتهرها بجذع « هل فقدت عقلك هنا موت وبهدلة ابتعدى ! » وللحظة وقفت شمس حائرة كان التقدم من هذه الطريق مستحيلا ولم يكن امامها من خيار

عادت فى اتجاه الكوبرى ثم انحرفت يمينا بمحاذاة النهر ثم يمينا مرة اخرى الى حوارى الجزيرة « سأذهب من طريق أخرى » فكرت . كان النساء والرجال

يسبون الحكومة ورئيسها بأقذع الشتائم ويعولون انها تطلق الرصاص على الناس
وكانت امرأة تقف امام بيتها وتتحدث مع جارتها ، تقول « يعنى الحكومة قالت
اختاروا الموت او الموت تموتوا من الجوع وتنكتموا او تعملوا مظاهرة وتنقتلوا ! أما
شئ وسخ صحيح ! »

وكان رجل غاضب ينحنى ويخلع حجارة الطريق يساعده فى ذلك بعض
الاطفال سمعت الطلقات عالية جدا هذه المرة واعقبها جلبة وصراخ ورأت شمس
بعض النساء والاطفال يتراجعون راكضين

انحنت شمس والتقطت كل ما وجدته من احجار وملأت بها سلتها ومضت
بانجاه الناس



دعوة
على العشاء
في كوخ تغطيه الثلوج

أخذت سلمى الرسائل من صندوق البريد وصعدت الى شقتها تركتها على المائدة ودخلت الحمام تحممت وجففت شعرها بالمجففة الكهربائية ووقفت امام المرآة لتزين كحل في العينين ، أحمر على الشفتين ورشة عطر على العنق لبست ثوبا اسود له ياقة من الدانتيل الالبيض ثم صفت شعرها وقبل ان تلبس الحذاء الذي يصل الى ماقبل الركبتين القت نظرة على مظاريف الرسائل كان معظمها فواتير البنك والتليفون ورسالة واحدة من القاهرة كان المظروف يحمل خط خالتها شمس نظرت للساعة ودست الرسالة في حقيبتها وهي تفكر انها ستقرأها في الطريق لبست الحذاء والمعطف والقبعة والقفاز ونظرة اخيرة القتها على هيئتها في المرآة . ابتسمت وغادرت البيت

سارت الى المحطة ثم نزلت على السلم الكهربائى لفحها هواء بارد وهى تنتظر على الرصيف أقى القطار ركبت ثم نزلت طافت بعينها بحثا عن الشاب التحيل ذى العينين الزرقاوين رآته ورآها فرفع يده ملوحا بالتحية وهو يسير باتجاهها مبتسما صافحها وانحنى وقبلها على وجتها صعدا السلم الكهربائى ثم سارا فى ممر طويل وانحرفا يمينا الى ممر آخر طويل ايضا اوصلهما الى قسم ثان من المحطة ركبا القطار الذى حملهما الى ضاحية من ضواحي المدينة

فى الشارع كان ضوء المصابيح المنعكس على ثلوج الطريق يضىء على المكان زرقة بنفسجية وكأن الوقت ساعة السحر سارا فى الطريق الجبلية المتعرجة الصاعدة وكانت اشجار الكستناء البرية عارية تماما الا من خطوط ثلجية بيضاء فوق بعض الفروع اما اشجار الصنوبر الابرية والتي تبقى خضراء على مدى العام فكانت مثقلة بالثلج ، ابيض على اخضر صعدا درجا حجريا ضيقا مقتطعا من التلة ثم رأت سلمى الضوء المنبعث من نوافذ المطعم وسمعت موسيقى العازفين كان كوخا مبنيا من جذوع الاشجار تغطى سقفه المائل الثلوج ويضىء مدخله قنديلان زجاجيان لهما اطار نحاسى

دفعوا الباب ودخلا لفح وجههما دفء المكان والضوء والدخان وصخب الرواد وعزف العازفين توقفا عند حاجز خشبى تجلس وراءه امرأة مسنة خلعا معطفيهما وقبعتيهما والقفازات أخذتهما المرأة واعطتهما ورقة تحمل رقما فى المقابل دخلا الى قاعة الطعام وجلسا الى مائدة خشبية مربعة وأطرى هنريك جمال ثوبها وقال ان اللون الاسود يلائمها بشكل خاص

وكانت سلمى قد التقت به فى يوم من ايام الآحاد الكثيرة التى تحمل فيها غذاءها وتذهب لقضاء اليوم فى حديقة من حدائق المدينة . تسير بين مساحات

— لو اردت أعلمك العزف على الصفارة

ضحكت سلمى وهى تقول

— فيكون لقاءنا تحت شجرة الكستناء هو المصادفة !

قال هنريك انه بحاجة الى سجائر لأن علبته فرغت وانه سيشتري من البائعة الآلية التى فى الممر وقام

تذكرت سلمى رسالة خالتها شمس فأخرجتها من حقيبتها وفضتها وكانت شمس تقول انهم قبضوا على طه مرة اخرى وان الامر هذه المرة يختلف عن المرات السابقة التى كانوا يعتقلونه فيها لشهر او شهرين « لقد قبضوا عليه ونشروا صورته فى الجريدة وقالوا انه متهم مع آخرين بانشاء تنظيم ضد الحكومة وانه سيقدم للمحاكمة » وبشرى تقول والمحامون ايضا ان القضية من اساسها ملفقة

وبشرى الآن تقيم معى هى وابنها خالد والحق ياسلمى انى قلقه عليها جدا لأنها اصبحت مثل العود ولا ترحم نفسها من العمل ولا التفكير « ورينا يجعل العواقب سليمة » . ولم تنس شمس ان تكرر سؤال كل مرة « متى تنوين العودة بالسلامة ؟ » وان توصيها « اعتنى بنفسك واحرصى عليها وكلى جيدا »

وفكرت سلمى انها لو قرأت الرسالة وهى فى البيت لاعتذرت عن دعوة هنريك للعشاء مسكينة بشرى كل يوم يمسكون بزوجها وهذه الحكومة العجيبة تملأ الدنيا حديثا حول الديمقراطية وهى تعتقل الناس وتخلق لهم التهم

العشب وعندما ينهكها المشى والجوع تفرد ملاءة صغيرة وتجلس عليها لتناول الطعام

فى ذلك اليوم رأته كان يجلس مسندا ظهره الى جذع شجرة كستناء ضخمة وينفخ فى صفارة خشبية سوداء طويلة مزينة بنقوش حفرت عليها كان يصفر لحنا شديد العذوبة والجمال ولم يكن يضع بجواره منديلا ليضع المارة فيه النقود بل لم يكن جالسا فى مكان يكثر فيه المارة كان يعزف وحده وكأنما هو يعزف لنفسه أو لعصافير منصتة على الشجر او لثمار الكستناء التى كان معظمها قد شق قشرته الابرية الخضراء كاشفا عن قشرته الداخلية الاخرى البنية اللامعة

وقفت تستمع ولاحظ هو ذلك وعندما انتهى سألها بالالمانية ان كانت قد أحبت عزفه فردت عليه بالايجاب ولكنها قالت له انها لاتعرف سوى بضع كلمات من الالمانية فسألها ان كانت تعرف الانجليزية فقالت انها تعرف فبدأ يعزف لحنا آخر مرحا وسريعا ثم توقف وسأل بالانجليزية هذه المرة « مارأيك ؟ » قالت « رائع ! » فضحك وعزف لها مقطوعة ثالثة

وجدت نفسها تسأله ان كان يقبل تناول الغذاء معها فوافق فرشت الملاءة بجواره ووضعت عليها ماحلته من طعام واكلا معا علق مبتسما « بك شىء من ام ريفية طيبة ؟ » وعندما افترقا شكرها وشكرته وقال « لو اردت ان تستمعى لعزفى مرة اخرى فسوف تجدينى فى نفس المكان الاسبوع القادم »

سألته سلمى

— هل تذكر ذلك اللقاء الأول فى الحديقة ؟

— وما الذى ذكرك به الآن ؟

ضحكت وجاء النادل بزجاجة النبيذ الأحمر التى طلباها ، اراها لهنريك ثم فتحها وصب له جرعة تذوقها وحرك راسه موافقا فانتقل الى سلمى وملأ لها كأسها ثم عاد الى هنريك وملأ كأسه وترك الزجاجة على المائدة وانصرف

— لم أحك لك ابدا حكايتى مع هذه الصفارة انها فعلا حكاية عجيبة كنت فى العاشرة او ربما اصغر واصطحبتنى امى الى احد المنتزهات وكنت اركض فى الحديقة عندما سمعت عزفا تتبع الصوت فوجدت رجلا طاعنا فى السن ، صغير الحجم ، له وجه متغضن وشارب ابيض كث ، ويرتدى ملابس قديمة تنم عن فقره وكان يجلس على مقعد خشبى من تلك المقاعد المتناثرة فى الحدائق وبحواره عجوز فى سنه — عرفت بعدها انها زوجته ، تلبس هى ايضا ثوبا عتيقا وتغطى شعرها بايشارب بجوارهما كان هناك المنديل المعتاد الذى يضع فيه المارة القروش

بقيت واقفا استمع وسألنى الرجل ان كنت أحببت عزفه فحركت راسى بالايجاب فقال « نعال » ومد لى يديه المعروقتين وجعلنى امسك الصفارة وقال « امسكها هكذا ! » وعلمنى كيف « ضع اصابعك هنا » نعم هكذا والان انفخ وأصبحت صديقا للرجل وتلميذا له ايضا وصرت اصر أن تأخذنى امى الى هذه الحديقة بالذات كل يوم احد حتى عندما يكون الجو رديئا وفى يوم كان المطر كالسيل واكدت امى ان العازف وزوجته لن يكونا بالحديقة ولن يذهب اليها احد على الاطلاق فى يوم كهذا ولم اقتنع بكلامها وقضيت اليوم بطوله ابكى واقول انها لاتحببى وتحرمنى

من الاشياء التى أحبها

لقد علمنى هذا الشيخ العزف وهو الذى اهدانى هذه الصفارة
والعجيب اننى لم احاول ابدا ان اعزف على صفارة اخرى ولو لم التق
صدفة بهذا الرجل لما تعلمت العزف بل وربما حتى ماعرفت اننى احب ان
اعرف !

— ولأصبحت حياتك خالية من هذا الشيء الجميل والاساسى الآن بالنسبة
لك

— كنت محظوظا بهذا اللقاء !

— انها مسألة حظ فعلا مرات افكر اننى لو ولدت فى اسرة لها علاقة حميمة
بالثقافة تأخذ اطفالها لحفل موسيقى او متحف او توجههم فى القراءة
لكنت شيئا مختلفا لست متأكدة ولكن يبدو لى ذلك احيانا

— هل تعرفين ؟

— لا

— ولكنك تحبين الموسيقى ، وهذا واضح

— احب الموسيقى ، واحب الرسم ، واحب النحت ، واحب الشعر ومرات
كثيرة اشعر بشيء داخلى يفيض وارغب فى التعبير عنه ولا اعرف كيف .

عاد هنريك ويده علبة سجائر من النوع الذى يدخنه وكانت الرسالة
مازالت بيدها طوتها واعادتها الى الحقيبة وقام هو بافراغ المتبقى من النبيذ فى
الزجاجة فى كأسيهما وكان النادل قد اتى بالأكل المطلوب وقال هنريك وهو
يتسم

— شهية طيبة

اجابته وكانت تفكر انها سوف تكتب رسالة طويلة لبشرى ما أن تعود الى
البيت « لو كان هناك تليفون فى بيت خالتى شمس لكنت اتصلت بهم غدا
صباحا أو حتى الليلة » فكرت وهى تمضغ بشكل آلى قطعة من اللحم
الذى طلبته

— ما رأيك فى اللحم ؟

سأل هنريك

— ممتاز !

— هل تحبدين الطهى ؟

— لا !

ضحك وقال ان هذه جرأة نحمد عليها استمرا يأكلان فى صمت ثم
سألها ماذا تطلب للتحلية فقالت انها تريد شايًا .

— فقط ؟

— فقط !

طلب لها الشاى وقهوة لنفسه شربا ثم دفع هنريك الحساب وقاما الى
المعاطف واستعدا أشياءهما وخرجا

سارا فى الطريق المنحدرة وكان الطقس شديد البرودة وأحاط هنريك كتف
سلمى بذراعه وراح يغنى بصوت خافت اغنية لم تفهم من كلماتها شيئا كانت
تشعر بالاضطراب وتريد ان تعود الى البيت بأسرع وقت وعندما وصلا الى
محطة المترو قال لها انه سيوصلها الى البيت فقالت انه لاداعى لذلك قال

— سلمى ، حقيقة يسعدنى أن اوصلك للبيت ، هل لديك مانع ؟

— اشكرك جدا على هذه الليلة الجميلة لكن لاداعى

هل احمر وجهه ام تصورت هى ذلك ؟ تصافحا وقبلها قبلتين سريعتين
على وجنتيها وركبت القطار الذى لم يكن به سوى عدد محدود من الركاب

جلست منكمشة وحانقة على نفسها لماذا تقبل الخروج للعشاء مع
شاب ثم تتركه هكذا فى منتصف الليل يعود وحده ؟! هذا سلوك غير أخلاقى !
هل من الاخلاق اذن ان تقضى الليل معه ؟!

نزلت من القطار وصعدت على السلم الكهربائى ثم سارت فى ممر طويل
لتركب قطارا آخر على الرصيف رأت عامل تنظيف وبدأ لها انه مصرى قبل

ثلاثة اعوام فقط كانت رؤية مصرى او مصرية فى المدينة حدثا بالنسبة لها اما الآن فالأمر يختلف صارت تتعرف على وجوههم السمرء الاليفة فى اماكن عديدة ، يبيعون الجرائد ، يقدمون القهوة ، يقفون امام شوايات الهامبورجر ومقالى الدجاج ولكن قد لا يكون هذا الشاب مصرية اقتربت منه وقالت

— مساء الخير

جفل الشاب ولم يكن منتبها ثم ابتم

— أهلا مساء الخير ، مصرية ؟

— مصرية

— تعملين هنا أم فى زيارة ؟

— اعمل هنا

أتى القطار فلوحت له بيدها وركبت ورأتة بعد ذلك وهو ينصرف لعمله فى تنظيف المحطة ظلت واقفة رغم الاماكن الشاغرة حتى غادرت القطار

أدارت المفتاح فى باب البيت ودفعت الباب ثم اغلقتة كان الظلام مطبقا أضاءت النور ثم خلعت المعطف والقبعة والحذاء وغسلت وجهها وجلست لتكتب رسالة لبشرى ولم تفلح وجدت نفسها تكتب شيئا آخر : رجال

يقفون على النواصي

في لسعة البرد

يبيعون الجرائد المكتوبة بلغة لم يألّفوها

رجال يخدمون في المقامى حتى الساعات الأولى من الفجر وينظفون
محطات المترو المضأة بالكهرباء

رجال

إذا أوغل الليل

بذهبون لاطفاء الشهوة

ولكنهم

لايجرؤون ابدا

أن يحكوا عن أمهاتهم

ولا عن إخوتهم الصغار

ولا عن علاقاتهم

التي فتها السفر ،

الرجال الغرباء

في المدن الغريبة

يجمعون القروش

ويحسبون الايام

وينفقون العمر



أختان

وضعت سلمى حقائبها واغلقت باب الحجرة ثم اتجهت الى التليفون للاتصال بمديحة للتأكد من ان كل ما اتفقتا عليه قبل ان تغادر فيينا ساريا ردت عليها مديحة وقالت انها ستصلها بعد ظهر اليوم التالى « سأخرج من عملى مبكرة سأركب التوبيس الواحدة ظهرا وسأكون عندك بالفندق بعد الرابعة بقليل » وضعت سلمى سماعة التليفون ودخلت الحمام ، غسلت يديها ووجهها وغادرت الغرفة أنزلها المصعد الى بهو الفندق ، تركت مفتاح الغرفة لدى الموظف المختص ثم دفعت الباب الزجاجى المفضى الى الشارع وخرجت

« لابد اننا بقلب العاصمة » ، نظرت الى ساعتها كانت تقترب من التاسعة الشارع مضاء مزدحم بالمارة واغلبهم شباب يسرون في مجموعات صاحبة او يثرثرون وهم واقفون امام المحلات الصغيرة التي تبيع المشروبات والفتاثر امرأة تلتف بملاءة بيضاء تكاد تحجب وجهها تسير برفقة رجل توقفت سلمى عند الاشارة الضوئية في انتظار العلامة الخضراء لكي تعبر يتوقف سبل السيارات فجأة فتعبر واجهات زجاجية مضاءة لمحلات تجارية مغلقة بالواجهات نماذج خشبية لرجال ونساء تعرض الملابس الباهظة الثمن ودار سينما تعرض فيلما مصريا يعلن عنه ملصق ملون كبير يصور شابا وسيما يدير ظهره لامرأة باكية تغطي وجهها بكفيها ، واسم الفيلم « ارحم عذائي » مكتوب بخط بارز

دخلت سلمى لشرب الشاي في مقهى كبير ملاصق للسينما حدثت فيها عيون الجالسين فانتبهت لخلو المقهى من النساء خرجت من الباب الآخر ودخلت محلا صغيرا للمشروبات دفعت ثمن كوب من عصير البرتقال ناوله لها صبي يلبس قميصا يصعب تحديد لونه ، بليت ياقته وتقطعت بعض ازراره شربت العصير وهي واقفة ثم واصلت جولتها

استوقفها صف من الأكشاك الخشبية لبيع الزهور زهور كبيرة لها سيقان خضراء قوية موضوعة في دلاء من البلاستيك مصفوفة على الارض ، أبصال بيضاء وحمراء ووردية وقرنفل وورد بلدى وزنبق موزعة في باقات حسب نوعها وموضوعة ايضا في دلاء وزهور منمنمة وهشة زهر البسلة والبنفسج والبانسيه وانواع اخرى لاتعرف لها اسما في ضمم تحملها اوان صغيرة مصفوفة على عوارض خشبية يقف وراءها دائما رجال ، خشنون وفقراء ، يبيعون رأيت رجلا متأنقا ولامعا يشتري باقة ، لفها له البائع في ورق السيلوفان وربطه بشريط وردي رقيق حمل الرجل باقته واسرع الى سيارته المصفوفة بجوار الرصيف وضع الزهور في

سارت بمحاذاة أكشاك الزهور حتى بلغت ساحة دائرية كبيرة يتوسطها تمثال حجري لرئيس الجمهورية واقفا على قاعدة مرتفعة يشير بيده اليمنى الممدودة امامه وكان هذا الجزء من الشارع أهدأ ويخلو من دور السينما والمقاهي كذلك بدا الضوء أكثر خفوتا

استدارت عائدة في نفس الطريق كانت الزهور الآن عن يسارها ظلت تمشي حتى وصلت الى ساحة ثانية اكبر صاخبة وتلتهم بالاضواء ويتوسطها تمثال برونزي كبير لفارس يركب على حصان يرفع احدى قائمته الاماميتين وكان التمثال لرئيس الجمهورية ايضا أخذت تروح وتغدو بمحاذاة الزهور وبين التمثالين حتى تعبت قدماها فاتجهت الى الفندق

ما أن فتحت عينها حتى نظرت الى ساعتها وجدت ما لم تصل الساعة فتحت المذياع فاستعذبت اللغة العربية المنبعثة منه تدرت بالغطاء مستمتعة بدفء السرير دقت الساعة السابعة وبدأت نشرة الأنباء بخبرين عن حاكم البلاد المُقْدَى ثم خبرين عن رئيس وزرائه تلتها انباء محلية ثم الانباء العالمية انتهت النشرة ثم بدأ برنامج من اقوال الرئيس

طلبت الافطار بالتليفون ودخلت الحمام تحممت وارتدت ثيابها ثم وقفت تنظر عبر زجاج النافذة الى حركة الشارع واسطح المباني المجاورة كانت فيروز الآن تغني « سنة عن سنة عم يغلي ع قلبي عهد الولدنه » وعلى سطح البناية المجاورة وقفت خادمة صغيرة تنشر الغسيل تنحني على سطل البلاستيك تأخذ منه قطعة ملابس ، تنفضها بقوة وتشب على اطراف اصابعها وتشبكها في الحبل

ثم تعود وتنحنى على السطل دق الباب ودخل النادل يحمل صينية الافطار صبت لنفسها الشاى وراحت ترشفه ببطء وهى تتساءل عن كيفية قضاء الوقت حتى وصول مديحة

تركت الغرفة ونزلت اشترت الجرائد من المحل الصغير الذى بداخل بهو الفندق ثم جلست لمطالعتها كانت مستغرقة تماما فى القراءة عندما سمعت اسمها و « غير معقول انه عالم صغير فعلا ؟ » رفعت عينيها ولكنها لم تتعرف على الرجل الذى وقف فى مواجهتها فكرت انه قد يكون الرجل الذى رأته يشتري الزهور الليلة السابقة ولكنه هتف باسمها « سلمى » ثم باسمها كاملا « سلمى عبد التواب » مدت يدها لمصافحة الرجل وهى تبسم لمداراة ارتباكها كان الرجل طويلا عريض المنكبين ، يميل الى الامتلاء ويلبس بدلة كاملة من ثلاث قطع

— واضح انك لاتذكرينى ، أنا مجدى سلام

كانت تعرفه كان جارهم وصديقا حميما لسيد ولكنها تطلعت اليه اكبر مجتهدة ان تجد فى ملاعح الرجل وهيته الولد الذى كان جارهم هتفت وهى تضحك

— طبعا لم اعرفك ، لأنك ببساطة زدت حوالى ٢٠ كيلو ، وكنت ولدا واصبحت « بيه »

ضحك مجدى ضحكة صاخبة وقال

— أما أنت فلم تتغيرى على الاطلاق !

— غير صحيح !

— والله صحيح ربما ازددت نخافة وجمالا !

سألها ان كان بإمكانها ان تتناول الغداء معه فاعتذرت بسبب وصول مديحة فدعاها للجلوس ولو لنصف ساعة في مقهى الفندق حملت الجرائد وتبعته وهو يقول ان رُبَّ مصادفة خير من الف ميعاد

جلسا في المقهى وطلب هو فنجان قهوة وطلبت هى شايا قالت وهى تضحك

— هل تذكر يوم تسببت فى ضربى ؟

— ذكرينى

— كنت اركب دراجة استأجرتها من عم على العجلاقي الذى خصّنى بواحدة مزينة ولها جرس عال سقتها وانا أتمايل فى زهو وادق الجرس المهم اخذ بعض الاولاد يعاكسوننى واخذت انا اضحك فاذا بك تظهر فى الشارع وتطلب منى ان اعيد الدراجة الى عم على « فورا ! » قلتها بصوت آمر فرفضت فقلت لى انى قليلة الادب لأنى اترك الاولاد يعاكسوننى ولما قلت لك اننى مؤدبة اكثر منك ركضت كالسهم فى اتجاه بيتنا وانت تنادى على سيد « الحق اخحك » فنزل سيد بالبيجامه والشبشب وضربنى وشتم الاولاد واعادنى الى البيت باكية ولما عاد اى من الشغل حكى له فضربنى مرة اخرى .

— لا اذكر اطلاقا

— اما انا فأذكر جيدا لأنى ضريت مرتين !

— المهم ، ماذا تفعلين هنا ؟

— اعمل مترجمة فى التمسا وانا الآن فى طريقى للقاهرة لقضاء الاجازة مع العائلة ولكننى ربيت سفرى عن هذا الطريق لكى ارى مديحة اختى لأنها ليس لديها اجازة ولن تتمكن من المجيئ الى مصر الآن

— هل تعمل مديحة هنا ؟

— نعم ، ولكن ليس فى العاصمة

سأله

— وانت ماذا تعمل ؟

ابتسم ابتسامه عريضة يملؤها الاعتداد

— انا رجل اعمال !

— مثل سيد ؟

— تقريبا

سألها عن افراد العائلة فحككت له ثم عاود السؤال عن بشرى

— بخير ، عندها ولد اسمه خالد

— بشرى انسانة رائعة ، جميلة وذكية ومن يوم ماعرفت بزواجها من ذلك الشخص الذى يسمى طه وانا حزين عليها

— ولكن طه انسان ممتاز هل رأيته او تحدثت معه ؟

— ولماذا اراه او اتحدث معه ، ومن اين يأتى الامتياز اذا كان كل يوم والثانى يدخل السجن فى قضية سياسية يعنى ولد صايع لاشغله ولا مشغله . وبشرى لم تكن تستحق هذا ابدا كانت تستحق وزيرا او مديرا

— او رجل اعمال !

ولم يخطر ببال الرجل الا ان تكون عبارة سلمى اطراء له فابتسم وأشار للنادل دفع له الحساب وقاما

انتظرت سلمى فى بهو الفندق حتى رات « رجل الاعمال » يغادره ثم غادرته هى ايضا تجولت لبعض الوقت فى الشوارع ثم عادت وجلست تنتظر

رأت مديحة عبر الباب الزجاجى للفندق قبل ان تدفعه بيدها لتدخل وما ان دخلت حتى كانت سلمى تقف امامها لاستقبالها وذراعها مفتوحتان

بوسعهما احتضنتها وهي تكرر اسمها ثم انتزعت نفسها لتنظر اليها ثم عادت
وضمتها مرة ثانية حملت عنها حقيبتها الصغيرة وجذبتها باتجاه المصعد قائلة

— تعالى الى الغرفة اولا لتغسل وجهك قبل ان تناول الغداء

قالت مديحة وهما في المصعد

— أحيانا كان يبدو لي وكأننا لن نلتقي ابدا !

— إزددت نحافة يامديحة !

— هكذا نحن ، نسل عبد التواب كلما كبرنا ازددنا نحولا

— الا سيد

ضحكت

— وهذا دليل اضافي على صحة نظريتي انه ابن حرام !

— لم تتغيرى !

قالتها سلمى بمزيج من العتب والفرح وكانت تدير مفتاح الحجرة في

الباب

« هل صحيح انها لم تتغير ؟ » تساءلت سلمى وهي تنتظر ان تنتهى

اختها من الاغتسال كلنا تغيرنا ، ولو بقدر ولكن مديحة بثوبها الفضفاض الذى يشبه الجلباب وشعرها الملموم كالعادة على شكل ذيل حصان وبديتها السريعة الساخرة استحضرت الماضى كأنه لم يمض

نزلتا الى مطعم الفندق وجلستا لتناول الغداء وسألت مديحة اختها ماذا تشرب قالت « ماء » طلبت سلمى لنفسها زجاجة نبيذ احمر وعلقت مديحة « أرى اننا اصبحنا ألا فرانكا خالص ! » ضحكتا ثم راحتا تثرثران انتقلتا من موضوع الى موضوع بلا منطق الا التداعى تبدآن حكاية فيذكرهما تفصيل منها بحكاية اخرى فينتقلان اليها وتستفسر احدهما عن امر يحملهما الى حكاية ثالثة وهكذا من موضوع الى موضوع ومن قصة لغيرها ولكنهما كانتا فرحتين مستفرقتين فى فرحهما باللقاء حتى أن النادل جاءهما بالطعام واكلتا وعاد فرجع الاطباق الفارغة واقفر المطعم تماما الا منهما والعالمين فيه الذين اخذوا يعدون الموائد للعشاء دون ان يستوقفهما أى شىء من ذلك

ضحكت مديحة وهى ترى اختها تفرغ آخر مافى الزجاجة فى كأسها

— يخرب بينك ياسلمى ، تشربين زجاجة نبيذ كاملة ولا تسكرين !

ضحكت سلمى وهى تقول

— لم اسكر ولكنى انتشيت ولو لم اكن شربت لمنعنى الحياء من ان اقول لك اننى احبك كثيرا واشعر باعداد خاص بكل ماهو انت هيتك وجرتك وقوتك !

— بركة ان آثار النبيذ لم تتعد مدح البنت مديحة . انا قلت لنفسى الآن

ستسكّر وتبدأ في البكاء على اطلال آل عبد التواب !

— كيف عرفت ؟

— كنت امزح ، هل انت جادة ؟

لفهما الصمت لدقائق ، عندها لاحظت مديحة انه لم يعد احد في المطعم
الا هما فاقترحت على اختها الصعود الى الحجرة

غيرتا ملابسهما لتقيلا لبعض الوقت ولكنهما ظلتا تثرثران حتى وجدتا ان
الساعة تجاوزت السادسة مساء طلبت سلمى شايا عبر التليفون والتفتت إلى
أختها قائلة انها لم تفهم ابدا لماذا قررت السفر للعمل خارج مصر

— أحيانا اقول لو ان مديحة في البيت لما استطاع سيد الاستفراد بأمه والاساءة
اليها بهذا الشكل

— لم ارد ان اكتب لك هذه التفاصيل في رسائل لكن ساعتها كنت مرتبطة
بشباب وكان علينا ان نفكر في طريقة ثمكننا من الزواج وفتح بيت ولم نجد
امامنا الا السفر قررنا ان نقبل اول فرصة امامنا وهكذا جئنا انا الى هنا
وذهب هو إلى الخليج

— ثم ؟

— توتة توتة فرغت الحدوتة !

— انتهت العلاقة ؟

— التقينا بعد عامين ولم نجد مانقوله وكان ذلك فاجعا لكلينا ولكننا كنا اذكى من ان نخدع انفسنا فذهب كل في طريق

— انا آسفة ، آسفة جدا لفتح هذا الموضوع

— فتحت الموضوع والآن عليك ان تقومى لفتح الباب ، الشاى وصل !

فعلا مديحة لم تتغير ، فكرت سلمى في ذلك وهى تفتح للنادل الذى أتى بصينية فضية عليها فنجانين فارغين وابريقين معدنيين بهما ماء مغلى وثلاثة اطباق صغيرة في احدها اكياس الشاى وفي الثانى اكياس السكر والثالث عليه شرائح من الليمون أخذت سلمى تصب الشاى في حين واصلت مديحة

— بعدها عدت الى هنا لأننى كنت اتعس من ان اظل لأبدأ في البحث عن عمل جديد

أخذت فنجان الشاى من سلمى وضحكت فجأة وهى تقول

— مرة سمعت اسمهان تغنى لبال الانس في فيينا فشعرت انى افتقدك بشكل حاد ، افتقدك لانى افتقدك ولأنى ايضا كنت بحاجة اليك تمنيت لو كنت امرأة ثرية لأشترى تذكرة طائرة لزيارتك ولو ليوم واحد

— ست سنوات في فيينا لم تخطر ببالى هذه الاغنية ابدأ الى ان ارسلت لى امينة رسالة تقول فيها انها سمعتها في الراديو فتذكرتنى وبكت .

انتفضت مديحة واقفة وراحت تتمايل وتحرك يديها كأنما تحمل مروحة كبيرة
وتقلد أداء اسمهان بشكل كاريكاتورى

ليالى الأنس فى فيينا
نسيمها من هوى الجنة
نغم فى الجو له رنة
سمعها الطير بكى وغنى

ثم وهى تقفز ثانية الى مقعدها وتجلس

— صفى شعورك ١٩

— شعور بالغيظ ، والغيظ الشديد خصوصا عندما تقول

آدى الحبايب ع الجانبين
إيه اللى فاضل ع الجنه

وكان شخصا يقصد ازعاجك بتأكيد عكس مآثره وتشرين به . لحنها
لطيف لكن كلامها فارغ ؟

— بالعكس كلامها دال جدا ويكشف عن علاقة الطبقة الوسطى الكبيرة فى
مصر بأوروبا التى ترى فيها النعيم والجنة وليس الاستعمار ولا حتى أوروبا
الحركة العمالية او الاتجاهات الطليعية فى الفنون .

قاطعتها سلمى وهى تضحك :

— أراك عدت لمواعظك القديمة !

— عدت وقد ازددت حكمة

قالتها بشيء من هزل لا يخلو من جد وهى تحنى رأسها قليلا فى حركة مسرحية

— قراءة + عقل ألمعى + روح وثابة = انسان حكيم !

— والله انك مجنونة !

— والله ان سلوكى عين العقل هل تعرفين ماهو البديل ؟

— البديل ؟

— نعم ، البديل هو ان تصبحى جزءا من مجتمع استهلاكى عجيب غريب نساء يُدَمِّن الاسواق ولا يتعبن من تكرار الحديث فى خلو الشقة وطلاء البيت وثمان متر الحرير الطبيعى ويتمتعن بمحصيلة مدهشة من المعارف فى كيفية وضع الزبادى على الشعر لكى يصير أملس وشرائع الخيار على الوجه لكى تصبح بشرته انعم يعنى باختصار اهدار مُبَرَّجٍ للعمر

كانت سلمى تتابع حديث اختها بدهشة وشيء من الاستمتاع كانت قد كبرت ، فى حديثها ثقة شىء واحد لم يكن قد تغير فيها جرأتها

— انت مجنونة يامديحة ، مجنونة ورائعة !

— مع انك لم تشرى زجاجة نبيذ !

اقترحتم سلمى ان تستعدا للخروج لتناول العشاء « فى مطعم مميز وجميل » ترك اختياره لمديحة التى اعترضت وقالت انها كانت سوف تصاب بالسكتة القلبية حين رأت المبلغ الذى دفعته اختها ثمنًا للغداء « سنأكل سندويشات ! » ضحكتم سلمى وقالت انها موظفة « كبيرة » وانه لن تحدث كارثة لو دلت نفسها واختها ليومين ولكن مديحة أصرت على السندويشات

— ونشرب عصير برتقال ، مفيد ولذيذ

— ثم ادعوك الى كأس كونياك فى أى مقهى

— والله انك خربتى وكان الذى كان أى كونياك ياسلمى هذه ليست فيينا بل مدينة عربية قبل شهرين فقط سدت شوارعها مظاهرات الجوع

— دمك ثقيل !

نزلتا واكلتا ساندويشات فى الطريق وتحولتا فى الشوارع ثم رجعتا وجلستا فى مقهى الفندق طلبت سلمى كأس كونياك ومديحة عصير برتقال

قالت مديحة

— منذ متى لم ترى بشرى ؟

— منذ آخر مرة ذهبت فيها إلى القاهرة ، منذ اربع سنوات .

— مستجدينها تغيرت

— كلنا تغيرنا يامديحة

— أصبحت هادئة لا أدري حتى ان كان هذا الوصف دقيقا كأنها مشغولة أو مأخوذة بشيء ما لأفصح عنه ابدا

— طبعا مشغولة بموضوع طه كانت خالتي شمس متحفظة على زواجها منه أنا لم اره سوى مرتين ولا اعرف ان كان يستحق كل هذا العناء

— طه انسان عظيم

— لا أظن ، اعتقد انه متهور مادام قرر ان يتزوج وينجب فكان اجدر به ان يلزم حدوده

— ماتقولينه سخف ياسلمى يلزم حدوده ؟ اية حدود ؟!

— اقصد ان عليه ان يفي بمسئلياته كزوج وأب

— وماذا عن مسئولياته كمواطن ، واع ومثقف ؟

— يقولون انه شيعى

— وان كان ؟!

— والله يامديحة ان القراءة جنتتك

— شيعوى او غير شيعوى الرجل مواقفه كالذهب

— انا لأفهم فى السياسة ولا احب الحديث فيها ولكننى اشعر بالتعاطف الشديد مع بشرى واشعر ان زواجها من هذا الرجل اغرقها فى بئر من التعاسة واطل اقول لنفسى ليتها لم تنزوجه !

— تفكيرك غلط !

صعدتا الى الغرفة وبنيتهما النوم مبكرا لأنهما كانتا متعبتين ولأنهما ايضا كانتا ترغبان فى قضاء الصباح فى جولة سياحية فى المدينة الا انهما ظلتا يتحدثان ، كل تُفضى الى اختها وتحكى لها عن حكايتها فى المدينة التى تعيش وتعمل فيها ولم تناما الا فى الساعات الاولى من الفجر

استيقظت مديحة قبل أختها نظرت فى ساعتها فوجدتها تقترب من العاشرة وحاولت ان توقظ سلمى والحت فى ذلك

— لايعقل ان تأتى وتذهبى ولا ترين من المدينة شيئا

ولكن سلمى غطت وجهها وهى تقول

— جئت لرؤيتك وليس لرؤية لمدينة اتركينى انام ولو ساعة واحدة اخرى

وعندما استيقظت سلمى تناولتا افطارهما وقضيتا باقى النهار والليل ايضا

تحدثان كانت مديحة قد قررت ان تركب اتوبيس الخامسة صباحا لكي تصل الى عملها في الموعد اما سلمى فكانت طائرتها ستقلع في العاشرة صباحا وكان عليها ان تغادر الى المطار الساعة الثامنة

لم تناما قط تلك الليلة وحين جاءت لحظة الوداع شعرت سلمى انها اكثر اشتياقا لاختها كانت الساعات القليلة التي جمعتها قد خلقت لحظة تواصل تجعل الفراق صعبا وبدا لسلمى وهي تقبل اختها مودعة ان رحلة العودة قد بدأت تنشر ظلالها الداكنة قبل ان يكتمل الوصول

قالت لها مديحة وهي تلوح لها بيدها للمرة الاخيرة وتغادر الفندق « قولى لخالتى شمس اننى سوف اعود العام القادم وسأقيم معها الى ان اجد عملا وعريسا ! » وضحكت ودعتها سلمى وهي تضحك ايضا ولكنها ما أن صعدت الى غرفتها حتى انخرطت في البكاء ، وظلت تبكى الى ان حملتها سيارة اجرة الى المطار



جمع

سبعة ايام قضتها شمس في الاعداد لذلك اليوم كنت
ونفضت ودعكت وحكت ومسحت وغسلت ولعت وربت حتى اذا
ما انتهت تطلعت الى البيت من حولها فألفته هادئا ومرتباً وضواها
تمت « كأن العيد غدا » ثم سخنت ماء وتحممت وكأ كانت تفعل
في صباحها تطيب بالمطر وكحلت عينيها ودهنت شعرها بشيء من
زيت الزيتون

في الصباح توجهوا الى المطار وطوال الطريق لم يكف خالد عن الكلام
مع أمه ولكنها كانت منشغلة عنه تدعو الله ان يحفظ كل الطائرات « بحق

جاه النبي ترأف بحال الناس وبحالى بحق جاه صفيك وحبيبك تكتب لعيني
الفرح برؤيتهم « ولكن خالد كان الآن يشدها من ثوبها محتجا لأنها لاتسمع
مايقول

— أريد ان تشتري لى طائرة حقيقية !

— حاضر

— متى ؟

ضحكت شمس

—نصل المطار ونكلم صاحبه لو وافق نشترى الطائرة ثم نستأجر حمارا يجريها
الى البيت موافق ؟

— موافق

وحاولت بشرى ان تفهم ابنها ان جدته تداعبه ولكنه قاطعها بنفاد
صبر

— ولكن جدتي قالت انها ستشتري لى طائرة وهى أطيب منك لأنك رفضت
وهى وافقت

وعندما وصلوا المطار تأكدوا من موعد الطائرتين ثم وقفوا بباب صالة
الوصول حيث كان يقف شرطى رفيع فقير ومتعب رأأت شمس ذلك كما رأأت

المستقبلين الواقفين والجالسين ايضا — كان بعض النسوة الريفيات قد افترشن الارض وجلسن ينتظرن موزعات الاهتمام بين حركة القادمين وأطفالهن الذين اخذوا يركضون هنا وهناك حشد من الأهالي بهوات وافندية وفلاحون ومرضعات تحمل ثيابهن السوداء رائحة الحليب الذى فى أئدائهن ومتزينات تفوح منهن رائحة العطر الفرنسى ، رجال ونساء ، مُسنّون وصبايا وشباب ، راتهم شمس جميعا ينظرون الى ذلك المكان حيث يقف الشرطى والذى يخرج منه القادمون فرادى او في مجموعات يدفعون امامهم بعربات حديدية عتيقة حملوها امتعتهم حقائب غالية وجديدة مصنوعة من جلد مقوى لها خطوط هندسية واضحة ، حقائب عتيقة مربوطة بالحبال ، حقائب من جلد رخيص حُشيت حشوا بالملابس التى أعطتها شكلها وقوامها فبدت اقرب الى الزكائب ، حقائب تحمل ملصقات صغيرة وملونة وحقائب كُتب عليها بخطوط طفولية كبيرة أسماء اصحابها وعناوينهم فى قرى صعيد مصر او دلتاها ، أكياس نايلون لامعة وجديدة تبدو منها زجاجات الخمر والسجائر ، وأكياس قماشية كبيرة فصّنها اصحابها وتكشف عما بداخلها من ملابس وحاجيات

صرخ طفل وقفز مندفعاً باتجاه الشرطى انخطف قلب شمس وقد بدا لها ان مكروها اصابه ولكن الولد الآن كان قد القى بنفسه على شاب نحيل وطويل يلبس نظارة طبية ذات اطار ذهبى دقيق ويغطى فوديه الشيب انحنى الشاب وحمل الصبى الذى احاط عتق ابيه بذراعيه وراح يقبله على وجنته وعنقه ثم ظهرت امرأة صغيرة الحجم تسرع الخطو باتجاه الرجل والطفل ويدها ممدوتان فى اتجاههما انحنى الشاب وقبل رأسها ونقل الولد الى ذراعه الايسر ولف ذراعه الأيمن حول كتف المرأة التى راحت تدفع بعربة الحقائب رأت شمس وجه المرأة الذى كان يخلج بشيء كالرعدة ونظرت الى بشرى فوجدتها هى ايضا تنظر

— ماما ، أريد أن اتبول

أخذته امه وذهبت وبقيت شمس في مكانها تنتظر مر عليها مجموعة كبيرة من الاجانب وكانوا جميعا بلا استثناء مُسنين لهم بشرة بيضاء مشربة بالحرمة تعلوها التجاعيد واحيانا الشمس وكانوا يعلقون على صدورهم بطاقات متشابهة ولا يحمل كل على العربة التى يدفعها سوى حقيرة واحدة ، أوحقيبتين صغيرتين « انهم سيّاح » قالت شمس لنفسها وتهدت وهى تفكر « أغنياء الى حد انهم يسافرون من بلد الى بلد للفسحة ! »

ركضت صبية كانت تقف بجوار الشرطى وصاحت « وصلوا ، وصلوا يا أم محمد » ظهرت امرأة تهول بشكل يتنافى مع سنها وثقل جسمها امرأة كبيرة يميز وجهها البنى المتغضن وشم أخضر على ذقنها اندفعت المرأة داخل الامتداد البشرى للممر الضيق لتستقبل شابا اسمر نحىلا ، ربما كان دون العشرين يجر عربة أمتعته توقف واحتوته فى صدرها واجهشت ثم راحت تقبل كتفيه وكل كجزء من صدره طالته شفتاها ساعتها مال الشاب على يدى المرأة ليقبلهما ولكنه أخذ ينتحب

مسحت شمس دموعها وغالبت رغبة ملحة فى البكاء ركض خالد باتجاه جدته وهو يرفع يده منتصرا بلوح من الشيكولاته

— قلت لماما انى اريد شيكولاته فقالت الشيكولاته ام الطائرة ؟ فأنا اخترت الشيكولاته فاشترت لى .

ابتسمت شمس وضحكت بشرى وسأل خالد محتجا

— لماذا تضحكان ؟!

هتفت بشرى

— هذه هي سلمى !

اندفعوا باتجاهها ، قبلتها بشرى اولا وضممتها شمس الى صدرها وهي تكرر « حمداً لله على السلامة ، ألف حمد لله على السلامة » ثم وهي تبتعد عنها قليلا وتبقى ممسكة بها « ولكنك ازددت نخافة يا بنت . ألا يوجد في الشمس أكل ؟ ! » وكان خالد يحتاج انهن نسينه فانحنى عليه سلمى وحملته وهي تؤكد له ان لا أحد يمكن ان ينساه وانها احضرت له لعبة جديدة . وفكرت شمس وهي تسير مع « البنات » باتجاه المقهى ان وجه سلمى شاحب وعينيها متفتختان كأنها كانت تبكي

وما ان جلسوا في المقهى حتى اخرجت سلمى من كيس نابليون كانت تحمله قطارا لعبة اعطته للصغير الذي اقبل عليه وانهمك في تشغيله

كررت شمس في قلبى « ازددت نخافة ! » وسألت سلمى عن « ماما منيرة » وطه فقالت بشرى

— خالتي منيرة ستصل اليوم من المنصورة وطه افضل

— مديحة ترسل له سلاما خاصا .. وطبعا تسلم عليكما جدا . وتقول لك

ياخالتي انها ستأتى العام القادم لتستقر هنا وستقيم معك

أجابت شمس وهى تبتسم

— عين العقل يابنتى وعقبالك

تنهدت ثم واصلت

— كل يوم اقول المرحوم عبد التواب كان على حق لما رفض فكرة سفر سلمى
والله ياابنتى ان السفر من عمل الشيطان غُلب وبعثرة وانت الله يسامحك
فتحت الباب فارجمى واقفليه ومن يدري يمكن رجوعك يكون فاتحة خير
فيرجع على وامينة ويلتم شملنا

ربت سلمى على كتف شمس

— عندك حق ياخالتي ، لكن الشيطان شاطر ! متى تصل طائرة على وامينة

— بعد ساعة

طلبن شايا لأنفسهن وعصيرا للصغير وتسال سلمى عن سيد وزوجته
الجديدة وعن البيت والجيران ثم تعود وتسال

— ولكن انت ياخالتي كيف احوالك ؟

ثم تحيب كأن السؤال كان مطروحا عليها هي :

— أراك كالقمر واكثر نشاطا وشبابا من آخر مرة رأيتك ، وحضنك كما هو
اجمل حضن في الدنيا

وتضحك شمس وتقول انه « كلام » وتضحك بشرى وتقول انها توافق
سلمى في كل ماتقوله وتنظر الى خالد المنهمك في اللعب وتؤكد لسلمى ان هديتها
عبقريّة ولولاها لما أمكن ان يتبادلن جملة واحدة مفيدة وتقول لها سلمى انها
تفتقدها كثيرا فتجيب بشرى بأنها تشعر بنفس الشيء ثم بصوت خافت « وأكاد
اعتب عليك احيانا لبعذك ! » وتقول شمس
— والنبي ياسلمى ترجعى ويكفى قلة عقل !

وتضحك سلمى وتقول

— وتقبل ان اقيم معك ؟

وترفع شمس يدها كأنها سوف تضرب سلمى

— والله انك مجنونة وهل اقبل ان تقيمي في مكان آخر

— وتجدى لى عملا ؟

— العمل كثير !

— وعريسا ؟

— ليس أكثر من العرسان !

بضحكن وتقول بشرى انه لا بد من الذهاب الى صالة الوصول لأن على
وامينة قد يصلان الآن فى اى وقت فيقمن ويتبعهن خالد محتجا لأنه يريد ان
يلعب

وقفن فى نفس المكان ينتظرن ورغم انشغالهن بالحديث الا ان شمس كانت
لا ترفع عينها عن نهاية الممر الذى يخرج منه القادمون حتى هتفت انهم وصلوا
واندفعت باتجاه الشرطى

خرجت امينة اولا تمسك بالصغيرين مجدى وجميلة ، طفل فى كل يد
وكان على يتبعها ، يدفع بعربة الامتعة واحمد يسير بجواره عانقتهما شمس ثم حملت
جميلة وهى تقول لها انها لاتصدق انها كبرت الى هذا الحد فتطلع اليها مجدى
قائلا « وانا ايضا كبرت اليس كذلك ؟ » ضحكت ووضعت جميلة على
الأرض وحملت وهى تقول انه كبير جدا لدرجة انها لم تعد تستطيع حمله ! وبكت
امينة تأثرا للقاء وضحك على وهو يقود المركب الصاخب باتجاه موقف
السيارات استوقفوا سيارتى اجرة ، وضعوا فيها الحقائب وركبت شمس مع على
والاحفاد وركبت بشرى مع امينة وسلمى واتجهوا جميعا الى البيت

كانت شمس وهى تروح وتغدو حاملة الاطباق من المطبخ الى مائدة
الطعام تشعر انه يوم عيد كان الجميع قد وصلوا ، عاد الاولاد من السفر ،
وجاءت منيرة من المنصورة ، وسيد وزوجته الجديدة من شقتهم عيد حقيقى
يؤكد حديث الاولاد الصاخب وركض الصغار وضجيجهم لو ان مديحة وطه
كانا حاضرين ! سيعودان ، مؤكد ، ساعتها تم الفرحة ويكتمل العيد

دعهم لتناول الغداء وهى تشعر بالرضا عن الطعام الذى صنعته .

« ملوخية لأجلك ياسلمى »... « الكفتة التى تحبها يا على » « منيرة طبخت لك البامية بالطريقة التى تفضلينها » « كل ياسيد هذا الرقاق صنعته خصيصاً لك » « الازلت تحبين البط يا أمينة ؟ » كانت تشدد فى دعوتهم الى الطعام فيضحك على ويقول « كأننا ضيوف ! » وتهمس سلمى فى اذن بشرى « لاينقص هذه الوليمة سوى المشروب ، ترى هل تعضب امك لو اتيت بزجاجة ؟ » وتقول امينة ان الطعام مذاقه رائع ولكنها تحرص على قوامها فيعلق على ساخرا « وهلى بقى هناك قوام ١٩ » فتحدجه زوجته بنظرة عاتبة ويقول سيد لعل « عليك بالجرجير يا على فان فوائده لاتخصى ! » فتضحك زوجة سيد الجديدة ضحكة مجلجلة تدهش الحاضرين ولا يفوت منيرة اظهار امتعاضها تذهب سلمى ثم تأتى ويدها كوب بلاستيك لا يظهر مابداخله وتعود الى مكانها بين بشرى وعلى وتهمس فى اذن بشرى وهى تشير للكوب « هكذا لا أضايقها ولا أنضايق ! » فتضحك بشرى ويقول على « اشركونا » فتناوله سلمى الكوب فيرتشف منه ويفاجأ ثم يضحك وتقول شمس « ارجعوا بقه ياأولاد ، ارجعوا ! » ويسأل سيد عن مديحة فتقول له سلمى « تحولت الى فيلسوفة وسياسية ولما ترجع ستجدونها مع طه فى السجن ! » تضحك امينة وتقول « تهور شباب غدا تهدأ وتعقل مثلنا » فيقول على « زوجهاها امينة ، والنتائج مضمونة ! » فيضحك الجميع الا امينة التى تستنجد بشمس « هل يعجبك هذا ياخالتي ، هكذا طوال اليوم ! » وتقول بشرى تكفى هذه البعثة متى ترجعون ؟ « فيجيب على بأنهم اذخروا الللازم للشقة والاثاث ويبقى ادخار بعض المال لتأمين مصاريف الأولاد » يعنى عامين او ثلاثة على الاكثر وتقول امينة « الشقة التى استأجرناها واسعة بها مكان للجميع انت ياماما تتركى المنصورة وتأتى للاقامة معنا وانت ايضا ياسلمى ومديحة ايضا » فيضحك على ويقول ان هذا ترتيب ممتاز وانه سيأتى للاقامة مع امه « كل واحد يقيم مع امه » فتزجره شمس وتقول انه وامينة يتصرفان كأنهما مولودان « فوق راس بعض » فيجيب على بخبت « هى فعلا فوق رأسى ! » وتعود شمس وتكرر « ارجعوا يا

أولاد لَمْ الشَّمْلُ يرد الروح » ثم بعثاب لسلمى « انت ياسلمى فتحت باب السفر ارجعى وسديهِ » وتقول امينة « مارأيكم يا جماعة كلنا نسافر ونقيم معا وعندما ندخر مايكفى نرجع » فتعلق بشرى دون ان تبتسم « ونصبح بنى هلال ويبقى لنا تغرية ا » وتحتج شمس « ماهذا الفأل السيء يا أولاد وهل نحن فى جماعة !؟ » وتهمس سلمى فى أذن على تسأله ان كان يريد ان تملأ له كأسا فيهمس فى اذنها بأنه يكون ممنونا لو فعلت وتأتى جميلة راكضة وتقول ان خالد ضرب مجدى وان مجدى ييكي فتتادى بشرى عليهما فيأتيان فتسأل ابنها

— لماذا ضربت مجدى ؟

— ضربته لأنه كذاب !

— لم أكذب

يقول مجدى

— لا كذاب وكذبت قال أبوك فى السجن أناقلت هو مسافر هو قال لأ فى السجن أنا قلت بابا مسافر مش حرامى هو قال لأ فى السجن فضربه لأنه كذاب !

بكى مجدى وقال انه لم يكذب واندفعت امينة بانجابه تريد ان تضربه وحالت شمس بينها وبين ذلك وقالت بشرى لخالد :

— غلط انك تضربه .

وقالت شمس

— مجدى فهم غلط ، يمكن هناك شخص آخر اسمه طه فى السجن ومجدى
تصور خطأ انه ابوك

قال خالد بعناد

— فهم غلط اذن هو غلطان !

قال على موجهها كلامه لأولاده

— انا وامكم لما كنا فى الجامعة امسكوا بنا ووضعونا فى السجن ليس لأننا كنا
لصوصا او اشرارا ولكن لأننا كنا طبيين والحكومة كانت هى الشريرة لو
كان عمكم طه مسجوننا فلا بد انه هو الطبيب والحكومة شريرة وايضا

قاطعه خالد

— لكن بابا مسافر وليس فى السجن واسألوا ماما جميلة ، تعالى نلعب
وأدار لهم ظهره وذهب

مفرد

□ □ وقف خالد عند رأس سلمى النائمة وراح ينادى عليها ويلح لكى

تستيقظ وسلمى تقول له انها اجازة وانه مسموح ان ينام الناس كما يحلو لهم في الاجازات ولكن الصغير راح يحتاج بانه لم يعد في البيت من ينام الا هي

— نريد ان نذهب الى حديقة الحيوانات

— اذهبوا ومع الف سلامة

— ولكن خالى يقول انه لن يذهب بدونك

وكانت سلمى قد استيقظت قبل ذلك وسألت عن بشرى فلما قالت لها شمس انها خرجت كعادتها منذ السابعة صباحا عادت للنوم مرة اخرى ولكنها الآن مع الحاح الصغير لم يكن امامها سوى ان تقوم غسلت وجهها وشربت الشاي وسألت عن موضوع حديقة الحيوان وعلمت ضاحكة ان حديقة واحدة تكفى سأل الصغار «أى حديقة ؟» قالت « انتم ! » ضحكوا فكررت ذلك وازافت انه في وجود اربعة نسانيس لامعنى ابدا للذهاب الى حديقة الحيوان فضحكوا اكثر

توقفوا اما باب الحديقة ذهب على لشراء التذاكر وراحت هي تتأمل تمثال مختار وتفكر انه دائما جميل أتى على بالتذاكر ثم توقف ليشتري « فول سودانى » وهو يكرر ضاحكا « القول للقرود وليس لكم ! » والصغار يضحكون ويقولون ان خالهم سلمى قالت انهم قرود رأوا بائع البالونات الملونة وطلبوا منها فاشترت لهم حملوها وراخوا يركضون ويقفزون كحبات الذرة في المقلاة قالت منيرة وهى تضحك انها لم تدخل الحديقة منذ ثلاثين سنة فقالت شمس « وأنا ايضا » .

ساروا مع الاطفال يشاهدون الحيوانات ويضحكون لتعليقاتهم ويثرثرون الى ان قالت منيرة انها تعبت من المشى فقرروا ان يستريحوا بالجلوس في جزيرة الشاى ساعتها اتت الخاطرة الى رأس سلمى فاعتذرت منهم قائلة انها سوف تذهب الى مشوار قصير « هنا بالقرب من الجامعة ، ساعة واحدة وأعود »

خرجت من الباب الخلفى الملاصق لباب كلية الهندسة ، سارت باتجاه الجامعة ولاحظت ان صف النخيل المزروع امام المدخل قد ازداد طولاً كما لاحظت ان سعفه مغطى بقدر ملحوظ من الغبار

استوقفت سيارة اجرة وقالت للسائق انها تريد ان تذهب الى ماوراء المزلقان

— أين ؟

— حين تعبر المزلقان سوف أدلك

لف السائق ثم دخل الى الشارع الفاصل بين الجامعة والمدينة الجامعية كم مرة قطعت هذه الطريق بدراجتها ؟ كانت دائماً مزدحمة ولكنها ازدادت ازدحاماً والغبار اصبح مَعلماً للمكان ، يرى بالعين المجردة كانت السيارات تقف في صف طويل يكاد لايتحرك نظرت سلمى بقلق الى ساعتها وأخيراً عبر السائق بها المزلقان وطلبت منه ان يتجه يمينا ولكنه قال ان ذلك غير ممكن لان الشارع مسدود ثم رأت هى ذلك ، رأت الحفريات التى لم تعرف ان كانت جزءاً من عملية هدم ام بناء ، والمواسير الضخمة المتروكة بعرض الشارع كما رأت الناس يسرون بحذر فى المساحات الضيقة المتروكة لهم بين المواسير والحفر والاحجار الضخمة وكان الغبار المنبعث من الحفر ومرور القطار ودييب الناس انفسهم يلف

دخل السائق فى شارع آخر مواز للشارع الذى اعتادت السير فيه بدراجتها وكان عامرا بالحركة والبشر وكلما توغل السائق فى المكان ايقنت سلمى انها غريبة عليه كان على السيارة الآن ان تسير ببطء شديد وسط مرور بشرى مزدحم أطفال عائدون من مدراسهم يلبسون مراكيل الدمور ويحملون حقائبهم القماشية او الجلدية المهترئة ويخوضون فى ماء المجارى ، ونساء يتسوقن وحرفيون يعملون بصخب فى ورشهم الصغيرة ، وباعة جوالون ، وعربات كارو تجرها الحمير ، وجحش سائب

قال السائق

— الى اين بالضبط تريدن الذهاب ؟

كادت سلمى تقول له انها تقصد النخيل والاهرام فيما وراء الشارع ولكنها لم تجرؤ فقالت وقد تضرع وجهها بالحمرة

— يبدو اننى قد اضعت طريقى لو تكلمت اعدنى الى الجامعة !

عن الزمان الجائر

« هل هى سنة الحياة أم حكم زمان جائر ؟ » تساءلت شمس وهى تفكر فى سفر الأولاد يقولون « لن نطيل ، قريبا نعود » ولكنه كلام يضيع فى رمال الغربة الناعمة التى تغوص فيها أقدامهم سنة بعد سنة . يحزمون أمتعتهم ويستعدون

للسفر ومن يدي متى يكتب لها الله اللقاء بهم سرت رجفة في بدن شمس وأحست بغصة في حلقها وبشيء كالمرارة في الفم « هل هي سنة الحياة أن يكبر الأولاد فيذهبون وتبقى هي وحدها كشجرة عارية تجتر الوحشة وتنتظر أم أنه الزمان الصعب يحكم على الناس بالشقاء ؟ ومتى يأتي الفرج وكيف ؟ » عاشت عمرها ترى وتكبر وتنتظر ، تحمل سلتها وتحمل وتقول غدا يكبرون وعلاؤن عليها البيت بالفرح مسحت دموعها بكفيها وقاومت رغبة في الانتحاب ولولا بشرى ، لولا وجود بشرى وخالد الصغير معها لقتلتها الوحشة قلبها يوجعها على بشرى وتكاد تعتب على طه ، وتكاد تعتب على علي وعلى سلمى ، ثم لاتعتب

قبل شهرين ، قبل أن يأتي علي وآمنة وسلمى لقضاء الأجازة معها كانت تجلس في المساء أمام التلفيزيون تنتظر عودة بشرى ، وكان خالد نائما عليها الناس ثم انتهت فجأة وقد بدا لها انه لم يمضى على موت زوجها سوى أيام أو شهور وكأن بشرى وعلى ينامان متجاورين في الفراش في الماضي كان ذلك يتكرر كثيرا ، تهب فرجة من نومها وكأن مكروها أصابها فتجد انها يغطان في نوم عميق ولكنها في تلك الليلة حين وجدت ان النائم هو خالد الصغير لم تفهم ومضت لحظات قبل ان تعي ان بشرى وعلى كبرا وتعلما وتوظفا وتزوجا وانجبا وأن النائم امامها هو حفيدها فهل كان كابوسا أم رؤيا أم هو القلق أدى إلى اختلاط الأمور عليها ؟

هل صحيح أن الأولاد كفلتهم كما تقول منيرة ؟ لا لا انهم الشمس ويدونهم يذوى الانسان وتموت رسالة منهم ترد الروح ودخلة بشرى عليها ، ولو في المساء متعبة ، نعمة كبيرة وعلى ليس سيد ، صحيح انه بعيد ولا تراه الا كل عدة سنوات ولكنها تحمد الله وتبوس الأرض أن ابنها هو على وليس سيد انه زمان جائر ذلك الذي يعطى سيد بلا حدود ويعبر الأولاد في الغربة ويثقل على بشرى الى هذا الحد ويترك طه حبيسا مع المجرمين في السجون زمان صعب وجائر

حَجَرٌ دافىء

يشق القطار طريقه الى جنوب الوادى فى ضوء شمس ريعية مستبّة
وحارقة وعينا بشرى مثبتان على الحقول التى تتراكمض على الجانبين
يدهشها التقسيم الهندسى الصارم والمتكرر للمساحات المزروعة « اذن
رحلوا ! » قالها طه كما قالتها هى من قبله

بدا مدخل البيت فى ذلك الصباح كصالة مطار صغيرة اكتظت بحفائب
المسافرين وأمتعتهم وبكت امينة كعادتها ، وبكى الاطفال لبكاء امهم ولم يقل
على شيئا وكذلك سلمى ولكنهما كانا واجمين شاحبي الوجه « لماذا كان سفرهم جارحا ايضا

وليس مؤلماً فقط ككل مرة ؟ » كادت تسأل طه ولم تفعل

حين زارته وجدته شديد النحول اصفر الوجه « هل انت مريض ؟ » سألت فأكد انه على مايرام وانه نشيط يقرأ ويكتب ويتأمل ويناقش سألها عن خالد وضحك عندما حكى له عن المشادة التى حدثت بينه وبين مجدى ثم طلب منها أن تذهب لزيارة أمه « أشعر اننى مقصر معها » قالت له انها تحبه وتفتقده وانها تفخر به وتتعلم منه وودعته وهى تبتسم ولكنها كانت تعرف انها سوف تبكى ما ان تخرج الى الطريق ، وانها سوف تتوقف عند ذلك السبيل الذى تتوقف عنده كل مرة لتغسل وجهها عدة مرات حتى لاتلحظ امها انها بكى الى هذا الحد قال لها طه «تحدد الآن الأمور على ماهى عليه فلن تبقى على حالها» فمن أين يأتي بهذه القوة وهل هى ثقة عمياء تلك التى تملؤه أم انه يرى ما لاترى ؟

حدقت فى حقل قمح يمتد ويتصل كأن لاحدود له بعدها جاء اللون البنى للحقل محروث كان الفلاحون المنحنون على الأرض لبذرهما يبدون من نافذة القطار المندفع كطيور بيضاء مثورة فى المدى الداكن حركة القطار المسرعة تنقلها من الحنطى للبنى ومن البنى للأخضر الذى يتعدد ويمتد « أخضر عتيق كلون ذلك الثوب الذى تملكه أمها ، وأخضر مخملى كالفلول وداكن كورق البصل ، وفاتح كورق الخس وزرعى كأوراق الذرة التى تكاد تستأثر بالمكان

من محطة القطارات استقلت سيارة اجرة حملتها مع آخرين الى القرية نزلت فى الساحة فلفح وجهها القيظ وكانت الشمس حارقة تغمر الأرض والبيوت بضوء حاد وضعت بشرى يدها على حاجبها مستظلة بها لتستين المكان الذى بدا لها راكدا فى هذا الوقت من الظهيرة « الفلاحون فى الحقول ، النساء فى البيوت ، والأطفال يلعبون فى الأركة » فكرت وهى تقطع الساحة متجهة الى

البيت ثم رأت صورة زيتية ملونة كبيرة لرئيس الجمهورية بلباسه العسكرى الموشى بالألؤمة والنياشين كانت الصورة التى تتجاوز الحجم الطبيعى مرفوعة على قوائم خشبية عالية تجعل ظلها لايسقط على الساحة بل على أحد المباني الواقعة فى أقصى الطرف المقابل ومرت بشيخ نحيل جلس مستسلما للقيظ والذباب يضع امامه حاملا من جريد النخل يعرض عليه للبيع نسحا قليلة من الجريدة اليومية ، بجواره كان يجلس شحاذ كفيف تجاوزتهما وسارت فى شارع متعرج يقود فى نهايته الى البيت قبل ان تصل التقت بثلاث قرويات متسريلات بالأسود كانت كل منهن تمسك بطرفى عباءتها الواسعة من عند الفم فلا يظهر منها الا العينان فتبدو كهرم صغير أسود يتحرك

دفعت الباب ودخلت ثم صفقت يديها تعلن وصولها « يا أهل البيت جاءكم ضيوف! »

أنت ام طه وهى تمسح يديها بذيل ثوبها وتقول « أهلا أهلا تفضلوا » ولم تكن قدتعرفت بعد على القادمين ثم رأت بشرى فاحتضنتها وهى تكرر وتلع « هل طه بخير يا بشرى ؟ » ضمتها ثانية الى صدرها وهى تقول ان ابنة نواره الصغيرة التى تعلمت المشى منذ سنة عادت تحبو وانها قالت لنواره « سيأتينا ضيوف » ثم استدركت « ولكنك لست ضيفة ، انت صاحبة البيت! » ضحكت ام طه وبكت وتحدثت واستمعت وارسلت من يخبر محمود فى الحقل ان زوجة اخيه وصلت ومن يخبر « البنات » ان يأتين عندها على العشاء وقامت وذبحت وطبخت وخبزت حتى اذا ماجاء المساء كان الأهل مجتمعين على العشاء كأنها وليمة معدة منذ اسابيع

عاد محمود من الحقل وسليمان من مدرسته وجاءت نواره مع اطفالها الخمسة ، وأطفال بهية التى لم تستطع الحضور لمرضها وجاءت بعض الجارات

ايضا وتجمعوا حولها يسألونها عن اخبار طه ويعتبون عليها انها لم تأت بخالد الصغير معها وينتقل بهم الحديث الى مواضيع اخرى ثم يعودون للسؤال عن طه وأخباره

انتحت نواره بشرى جانباً ، قالت

— أريدك ان تحدثنى امى سعيدة حصلت على شهادة القبول للاعدادى هذا العام وابوها مصر تقعد فى البيت وهى تبكى ليل نهار وانا قلت له لو منعت البنات عن المدرسة سأترك لك البيت فضربنى وشتمنى وقال لى انى شرموطة واريد بنتى مثلى وان الباب مفتوح يفوت جملاً
جئت لأمى قالت لى ارجعى بيت زوجك واسمعى كلامه رجعت على
عينى كأنى من غير أهل

— هل تريدین ان اتحدث مع عبد الله ؟

— لا ، اريدك ان تحدثنى امى عبد الله سيسمع لك تأدبا ولكن ما ان تذهبى حتى يضربنى ويقول لى يابنت الكلب تخرجيننى أمام الاغراب امى
هى التى يمكن ان تفتح معه الموضوع او اخى محمود ولو غضبت هنا فترة
سيأتى ويطلب رجوعى ويقبل بدخول البنات المدرسة

— سأكلمها

— الله يسعدك يا بشرى أنا اريد تعلم البنات لأنه تكفى خيبتنا ، ولا داعى
نجددها فى البنات انا لامعى شهادة ميلاد ولاشهادة تعليم ولما اموت قد
لا يكون لى حتى شهادة وفاة .. صحيح يا بشرى هل يمكن ان يكون للانسان

شهادة وفاة ان لم يكن عنده شهادة ميلاد !

ربت بشرى على كتف نواره ، قالت

— لا تحملى الهم سأكلم أمك فى الموضوع

وفى الليل عندما ذهبوا ومدّت ام طه ساقها امامها على الحصيرة مسندة
ظهرها الى الحائط عادت تسأل بشرى

— بالله عليك يا بشرى تطمئننى على طه

سألتها عن التفاصيل وكانت تمسح دموعها وهى تسأل « ماذا يأكل ؟ »
و « كيف يعيش ؟ » و « هل ان جئت الى القاهرة يمكن ان ازوره ؟ »

— انا يا بنتى لم اذهب الى « مصر » ابدا ، فماذا تفعل امرأة مثلى هناك
ولكنى سأذهب انا يا بنتى لا أفهم ما الذى يجعل الحكومة تضع شابا يرّد
الروح كطه فى السجن ، طه يده عفيفة ولسانه عفيف ويشهد رى انه أظهر
أولادى

سألتها بشرى ان كان لم يحدث فى القرية ان اودى شخص تحديدا لأنه
عفيف تنهدت الأم

— كثيرون يا بنتى كثيرون ، لا تعدى ولا تحصى لكن انا قلت انها « مصر » ام
الدنيا فيها ميزان العدل والمحكمة والقاضى .

— ميزانهم مائل يا أمى !

فبكّت أمسكت بشرى يدها قائلة

— طه يشرف يا أم طه وتسلم البطن التى حملت ومالت على يدها لتلمحها
ولكن ام طه سحبت يدها بسرعة وهى تقول عبر دموعها

— استغفر الله يابنتى ، استغفر الله !

ورغم تعبها الشديد لم يغمض لبشرى جفن طوال الليل وكانت تعرف أن
أم طه أيضا لاتستطيع النوم كانت تتقلب كثيراوتتند بين حين وآخر قائلة « لا
اله الا الله ! »

وفى الصباح عرفت ان حماتها لم تقض ليلتها فى ارق فقط بل ايضا فى
البكاء كان ذلك واضحا من لون عينيها وانتفاخ جفنيها

سألنها وهما تحتسيان الشاى

— مارأيك ، هل تأتين معى غدا الى القاهرة ؟

— كيف ؟ محمود مشغول بالحصاد ، وسليمان سيمتحن بعد اسبوعين ولو لم
تكن بهية مريضة لطلبت منها ان تأتى لتقوم على خدمة اخويها ان شاء الله
الشهر القادم آتى مع محمود .

— سأنتظرك .

— سآنى

قالتها وهى تمسح دمعة بظهر كفها

— كنت اتمنى ان اذهب الى « مصر » لسبب آخر

— تأتى لزيارته ، ثم تأتى مرة اخرى يوم خروجه بالسلامة

فكرت بشرى انه من المناسب ان تفتح معها موضوع نّوارة لأن ذلك على الاقل يبعدها عن حالة التأثر الشديد حدثتها فى الأمر ، قالت لها ان نّوارة محقة فى رغبتها فى تعليم ابنتها وان عليهم ان يساندوها فى ذلك

قالت أم طه

— البنت نّوارة قوية وكثيرة الكلام !

— ولكنها على حق ، وحرمان البنات من التعليم ظلم ، وضرب الرجل لامراته ايضا ظلم

— يابنتى لو ان المرأة تغضب وترجع الى بيت ابيها فى كل مرة يقع ظلم عليها لانخرت كل البيوت منذ زمن ولما وجدت بيتا واحدا عامرا ومفتوحا

— يأم طه ، هل الصحيح اذن ان نقابل الظلم بالسكوت ؟

— تسكت وتحمل وتعيش !

قالتا بحزم وصرامة ونهاية ولم يكن من مجال لمواصلة الحديث

في المساء لبست ام طه عباءتها ونادت على الولد سليمان لكي يصحبها
هى وبشرى لزيارة بهية

لم يكن البيت بعيدا وعندما وصلوا دفعت ام طه الباب الخشبي الكبير
الذى احدث صريرا ملحوظا وما ان خطت بقدمها اليمنى الى باحة الدار حتى
صفقت يديها تصفيقتين معلنة عن قدومهم الى يمينهم مباشرة كانت هناك
جاموستان مربوطتان تجاوزوهما ثم دلفوا من باب مفتوح قامت بهية التى كانت
جالسة على احدى الأرائك وراحت ترحب ببشرى وتحتضنها وترحب بأمرها وتؤكد
انها خطوة عزيزة وانها الآن بخير

كانت الحجرة فسيحة نسبيا بها ثلاث أرائك كبيرة بجوار احدهما طاولة
خشبية صغيرة مكدسة بالكتب والكراسيس المدرسية وفي مقابلها رأت بشرى
طاولة أخرى أكبر تحمل جهاز تليفزيون ضخم مغطى بغطاء من قماش

دخلت امرأتان متقاربتان في العمر يعلو وجهاهما الابتسام قالت ام طه
وهى تسلم عليهما وتقبلهما انهما كريمة وست ابوها سلفتا بهية سألتها عن
زوجيهما فأجابتا انهما بخير وقالت كريمة انه وصلها رسالة منذ عشرة ايام
وأوضحت بهية لبشرى ان عبد الرسول وعبد الحق هما اخوة زوجها عبد القوى
وانهما يعملان الآن في العراق

ثم أتت صبية تحمل صينية من الصاج مزينة برسوم ذات ألوان زاهية لورود
بلدية عليها زجاجات الكوكاكولا وقالت بهية بفخر ان الصبية هى سمية ابنتها
وانها « مقرى فاتحتها » على ابن عمها . قالت كريمة وهى تضحك مشيرة بيدها

— ابني انا !

واحمر وجه البنت ففادرت الغرفة ثم جاء عبد العال الذى كانت بشرى قد رأيته فى الليلة السابقة ، صبى فى الثانية عشرة سلم على جدته وزوجة خاله وجلس وراء الطاولة المكّسدة بالكتب وعلقت ام طه

— عبد العال يشبه خاله طه فى المدرسة الأول ويجب قراءة الكتب ومحترم بين الناس

ضحكت امه وقالت

— سبحان الله حتى فى حبه للملوخية كأخى طه !

أتى طفل صغير وسأل عن موعد المسلسل فقالت له بهية

— بعد ربع ساعة ، العبوا فى الشارع ولما يأت المسلسل سأناديكم اسمع قل لمحمد ان يذهب الى بيت خالتك نواره ويقول لها ان امها وزوجة اخيها هنا

ثم نادى بهية على سَمِيّة وهمست فى اذنها بعد قليل عادت البنت ويدها الصينية مرة اخرى وعليها هذه المرة ابريق الشاي والاكواب

دخلت نواره وفى ذيلها موكب من الاطفال ، لم يكونوا اولادها فقط بل اطفال الاخريات الذين انهموا لعبهم فى الشارع لكى يشاهدوا المسلسل قدمت

سمية الشاي ثم رفعت الغطاء القماشى عن التلفيزيون وفتحته وجلست كالآخريين
للمشاهدة وكان الاطفال الآن قد تربعوا على الحصيرة وعيونهم معلقة بالشاشة
أدهش بشرى التشابه الكبير بين وجوههم كأن لهم جميعا نفس البشرة الخمرية
والشعر المجعد كصوف الخرفان والعيون اللوزية الدعجاء وبدوا لها متقاربين جدا فى
السن ماعدا سعدية ابنة نواره التى لايريد لها ابوها الاستمرار فى المدرسة وسمية
«المقرى فاتحتها» وباستثناء عبد العال الذى ظل فى مكانه يقرأ وطفلة صغيرة جدا
راحت تلعب بفردة حذاء قديم كانوا كلهم يحدقون فى الشاشة امامهم ويتابعون
فقرة الاعلانات التى تسبق المسلسل

امراة جميلة تقفز فى الهواء كأن جسدها لا يخضع لجاذبية ارضية يتمايل
جذعها فى نعومة فيتطاير شعرها الأملس الطويل الاشقر ثم صوت نسائى دافئ
يعلن شامبو برادايز ، سحر وفتنة

ويتبع ذلك مشهد آخر لشاب يقود قاربا بخاريا يطوى الامواج العالية
فيتطاير الرذاذ ومهمس صوت ناعم عطر الشباب عطر كانت الطفلة
الصغيرة قد بدأت تبكى لأن احد الأولاد قرصها

— من هو الذى قرصك ؟

سألت ست بوها

فأشارت بيدها الى الصغير الذى يجلس بجوارها والذى علا صوته مقسما :

— ورب الكعبة هى التى قرصتنى .

واحتج باقى الاطفال طالبين منهما ان « ينكما » لأن المسلسل بدأ وهم يريدون مشاهدته

راحوا يتابعون البطلة الجميلة التى عادت من عملها فى سيارة حمراء ثم تحممت وتزينت ومَرَّ عليها صديقها فى سيارة اخرى زرقاء لتناول العشاء فى مطعم تعزف فيه الموسيقى فيرقص الناس على ضوء الشموع أَطبق على المكان صمت لايقطعه سوى حوار الممثلين وانفاس الاطفال ولاحظت بشرى ان ام طه لم تكن تتابع التمثيلية بل كانت غارقة فى افكارها وان عبد العال ايضا ظل فى مكانه مستغرقا فى القراءة قامت اليه ووقفت بجواره وهى تسأله

— ماذا تقرأ ؟

« تأخرنا ! » قالت ام طه وهى تسير مع بشرى ويسبقهما الولد سليمان بخطوات ولم تجد بشرى شيئا تقوله فقد كانت تحديق فى البيوت العتيقة المتشابهة على جانبي الشارع والتى بدت فى الضوء الخافت كقلاع او معابد من زمن بعيد يستعصى عليها الابواب موصدة ولا نوافذ سوى طاقات معلقة بأعلى الجدران . وكانوا يسرون فى زقاق ضيق ومستقيم لاينحني ولكنه ينحرف فجأة ليبدأ زقاق مستقيم آخر

قالت أم طه

— غدا اقول لأم خالد انك ذهبت لزيارتها ولم تجديها

— ألا نستطيع زيارتها الآن ولو لدقائق ؟

— ربما نامت

— وربما لم تنم بعد

دخلوا فى الزقاق المؤدى الى البيت ولكنهم قبل ان يصلوا مالوا يمينا ثم دقت ام طه على باب كبير لم تلاحظ بشرى انه باب الا عندما دقت حماها عليه سمعوا خطوات تقترب

— من ؟

— افتحى يأم خالد ، أنا ام طه ومعى زوجة طه

صَرَ الباب الخشبى العتيق وانفتح كاشفا عن شكل مبهم لجسد صغير احتضنت المرأة بشرى وهى تسألها ان كان طه قد خرج بالسلامة دعتهن للدخول ولكن ام طه قالت ان الوقت تأخر وانهم ارسلوا لها بالأمس ولكنها لم تكن موجودة بالدار

— حمدية جاءها الطَّلُق وارسلوا فى طلب الداية ولم يجدوها فأرسلوا لى فذهبت

— وقامت بالسلامة

— الحمد لله وجابت عريس ! والله تنفضلوا

ولكن ام طه كررت ان الوقت تأخر وان سليمان يريد ان ينام وانهم اوصوا

على سيارة اجرة لتحمل بشرى الى محطة القطارات ستأتى فى الرابعة صباحا كان الضوء الخافت المنبعث من مصباح ما داخل الدار يلقي بصفرة باهتة تحيط بالمرأة الصغيرة الواقفة عند الباب يؤكد عمق الفراغ الذى وراءها قالت بشرى لحمايتها

— ارجعى انت مع سليمان وسأبقى انا هنا مع ام خالد بعض الوقت ثم أجيء

حيتهما ام طه وهى تنبه على ام خالد ان ترشد بشرى الى طريق البيت التى لاتمر على الشارع

خطت بشرى الى داخل البيت وابتعدت ام خالد بمصباح الكيروسين الى حجرة الجلوس ووضعتها على حافة النافذة ثم ذهبت مرة اخرى وابتعدت بوابور وابريق لصنع الشاى ثم ذهبت مرة ثالثة وكانت طوال الوقت ترحب ببشرى وتكرر ان الدار ثورت أتت ام خالد بقدر من الطحين وقدر من السمن وآنية نحاسية وهى تقول انها لن تصنع اى شئ ، فقط وبسرعة فطيرة بالسكر ما أن يغلى الماء للشاى حتى تكون عجنتها فتقليها فى السمن على النار وضحكت بشرى وهى تضع الآنية جانبا وتقسم انها اكلت وشربت فى بيت بهية ولم يعد فى بطنها اى مكان للفطير وقالت ام خالد ان هذا لا يصح ولكن بشرى أصرت الا تقوم بصنع الفطيرة وقالت انها جاءت لتجلس معها وتراها وانها سوف تشرب معها الشاى وتذهب

أوقدت ام خالد وابور الجاز ووضعت عليه ابريق الشاى الصاج الكحلى وراحت تسأل عن اخبار طه :

— المرة القادمة حين تزوريه قولى له ام خالد طول عمرها عارفة انك غالى ولكنها لم تكن تعرف انه بعد « الغالى » لم يعد غالى سواك

رفعت يديها فجأة وانطلقت فى دعاء حار « ربنا يحميك ياطه ويصونك وينصرك على أعاديك ، ربنا يوقف لك اولاد الحلال ويفتح فى وجهك الابواب ويكتب لك فى كل خطوة سلامة » مسحت وجهها بكفيها ثم صبت الشاى فى الكوبين وهى تسأل بشرى وتلع لماذا لاتريد ان تأكل فطيرا من صنع يديها

أطفأت الوابرر وقالت وهى تقلب السكر فى الشاى انها قضت الليلة السابقة تشرف على ولادة حميدة الجارة

لما وصلت كانت الرأس قد بانت وربنا سهل وساعدتها وشرف « العريس » ولكن المشكل ان الخلاص لم ينزل نظفت الولد وربطت له سترته وقطعت الحبل وانتظر الخلاص والخلاص لاينزل وانا اقول « يارب سترك » زوج حميدة كان قد ذهب لياقى بأهها فى الجهة الأخرى من القرية ولم أستطع ان اتركها هكذا لكى اذهب وانادى على اى واحدة من الجارات انتظرت وطال الانتظار وليس معى سوى حميدة المسكينة وربنا قلت « يابنت اسحبيه وسلمى امرك لله » لفيت الحبل على يدى اليمين ووضعت يدى الشمال تحت سرّة البنية واول ماحسيت بالطلقة صرت احرك يدى الشمال لفوق واشد الحبل لتحت بيدي اليمين نخلص الطلقة انتظر ترجع ارجع اسحب الحبل لتحت واسند بيت الولد لفوق نخلص اسكت ، تبدأ ابدأ ويابشرى يابنتى حضرت ولادات كثيرة لكن هذه المرة كانت اصعبها صرت ادعو واقول « يارب عاون ، يارب روح وفى ايدك تحيها ، يارب لانكسر بخاطرى ، جبر الخواطر عليك » ويابشرى يابنتى كان يتبألى انى سأبقى هكذا إلى مالا نهاية وان حميدة مستسلم الروح بين يدى وافكر فى عيالها الاربعة النائمين فى الحجرة الملاصقة فيزرب العرق البارد فى ظهرى .

ولكن الخلاص فى النهاية نزل وبقيت احَدَق فىه واحقق وكنت سعيدة كأنه الولد
الذى امامى

زفرت المرأة دون ان تبسم ، قالت

— الحمد لله !

كانت أم خالد تمسك بكوب الشاى بين يديها البُنيتين المعروقتين ولاحظت
بشرى انها تلبس دبلة فضية فى بنصرها الأيسر سألتها

— وماذا سميت الولد ؟

لم تنتبه ام خالد للسؤال كانت تنظر امامها وتقول كأنما لنفسها
« روح بأمره يأخذها وبأمره يحياها »

قامت بشرى قائلة انه حان وقت الذهاب فأمسكت بها ام خالد تدعوها
لقضاء الليلة معها وهى تؤكد انها ستوقظها فى الوقت المناسب لأنها تستيقظ قبل
صلاة الفجر

— المرة القادمة سأنزل عندك واقضى معك بدل الليلة ليلتين

— الله يكرمك يابنتى ويسهلها لك ويرجع لك رجلك سالما غانما انتظرى
لحظة

تركت ام خالد الغرفة ووقفت بشرى تنتظر فكرت ان ام خالد تقضى

الليالى الطويلة وحدها فى هذه الدار حيث ضوء المصباح الخافت يؤكد الوحشة بدلا من ان يبددها حاولت ان تتذكر ان كان المكان يبدو مختلفا فى الصباح وكانت قد جاءت مع طه من قبل. دارت بعينها تبحث فى الحجرة عن الكنبه التى كانت قد جلست عليها ، رأت صورة خالد المعلقة على الجدار لم تلحظها لأنها كانت تجلس الآن فى مواجهة ام خالد وظهرها للجدار الذى يحمل الصورة لماذا تبدو مختلفة الآن ؟ هل هى العتمة والضوء الشاحب ؟ كانت تألف وجه خالد فى الصورة المعلقة هنا وفى بيتها فى القاهرة ، شاب فى مقتبل العمر له وجه مستدير باسم ومقبل فلماذا يبدو الآن مختلفا كأنه كهل حزين سرت بحسدها قشعريرة وداهمها شىء كالخوف

عادت ام خالد وقد حملت سلة من الخوص وقالت « الموجود انهما رغفان وطه يحب خبز بلدنا ، الموجود » كررت أحاطت بشرى المرأة النحيلة بذراعيها وضمتها واخذت منها السلة ثم قادتها ام خالد التى كانت تحمل مصباح الكيروسين فى يدها عبر الباحة الخاوية ثم عبر ممر ضيق فباحة اخرى فممر ثان ثم دفعت بابا ووجدت بشرى نفسها فى بيت حماتها قالت باندهاش « لم اكن اعرف ان البيتين متصلان ! » قالت ام خالد « تصبحين على خير » وتركتها وعادت

صحبا محمود الى محطة القطارات لوحت لأم طه التى بدت وهى تقف فى مدخل البيت فى هذه الساعة من السحر كتلة داكنة ومبهمة التفاصيل انطلقت السيارة العتيقة تقطع صمت القرية وعتمتها بصوت محركها وضوء مصابيحها الأمامية

عندما وصلوا الى الساحة توقف السائق لياخذ ثلاثة رجال كانوا ينتظرون ، ركبوا فى الجزء الخلفى المسقوف بالقماش ثم واصلت السيارة طريقها .

كان الجبل الاجرد الآن قد اصبح على يسارهم ، امتداد اصم يتحد الطريق ويواكبه ، كان يمكن في هذا الوقت البنفسجى الداكن رؤية ذلك الا انه لم يكن بالامكان رؤية الوادى المزروع على يمينهم

وقفت مع محمود تنتظر القطار على رصيف المحطة ولما رآته قادما مدت يدها وودعته واوصته بأمه واوصاها هو بالصغير وطلب منها ان تبلغ سلامه الى طه حاذى القطار الرصيف ثم توقف وانفتحت ابوابه محدثة صريرا مميزا حملت السلة فى يدها وركبت

لم تكن قد نامت فى الساعات القليلة الفاصلة بين عودتها من عند ام خالد ومغادرتها للبيت استعصى النوم عليها تماما ولانها لم تكن قد نامت ايضا فى الليلتين السابقتين ، ليلة استعدادها للسفر الى القرية وليلتها الاولى فيها فقد كانت تشعر بالانهاك الشديد « سأحاول النوم ، ولو ساعتين وعندما اصحو اشرب كوبا من الشاى فانتبه » وكانت تفكر ان عليها ان تذهب مباشرة بعد وصولها الى المدرسة للقيام بعملها ولكنها لم تستطع ان تنام ام انها اغفت وصحت واغفت فبدا لها ان نومها المتقطع أرق ؟ كانت حركة القطار السريع وصوته العالى الرتيب يصيبها بشيء كالحذر وكأنما هى بين النوم والصحو لا بد اننى نمت ، ولو لدقائق كانت قد رأت حلما أكان حلما ام احلاما ام شذرات من شيء كالكابوس ؟

« كانت ام خالد تبكى وكانت ام طه تؤكد لها انها فهمت خطأ وان الولد بخير وان امه قامت بالسلامة » ام ان الذى رآته كان عكس ذلك والتى تبكى كانت ام طه ؟

فتحت بشرى عينيها فرأت الحقول تتراكم فى ضوء لشمس ساطعة

« احتقن وجه المرأة وانضغط ، اختفت العينان في تجاعيد الوجه المتقلص ، تشنَّجت اصابع القدمين وانغرست اكثر في الارض وبحث اليدان عن شىء تشبثان به ، لم تجدا ، فانغلقتا على نفسيهما متكورتين في توتر متخشب واتسعت فجوة الفم وهى تطلق صرخات حادة ومتلاحقة »

شهقت بشرى وهى تمز رأسها وفتحت عينها وجدت يديها منقبضتين في تشنج ، فتحتهما ، وجدت أن أظافرها قد تركت علامات واضحة على كفها « انه حلم ، ، انه حلم » كررت وقامت الى دورة المياه وغسلت وجهها عدة مرات « انتى مرهقة ، هذا كل ما فى الأمر »

دخلت الى مقهى القطار وجلست على المقعد العالى واسندت مرفقيها على العارضة الخشبية وطلبت كوب شاي ، شربه ثم طلبت كوبا آخر نظرت الى ساعتها ووجدت ان القطار سوف يصل الى القاهرة بعد ساعة واحدة

وفي المحطة شقت طريقها الى باب الخروج وكان صوت أجش يعلن في مكبر للصوت عن وصول قطار الصعيد خرجت الى الميدان المزدحم بمركبة تموج في كل اتجاه ، من وإلى شبرا والقللى والتحرير والعبة والضاهر وغمرة والعباسية

وقفت تنتظر قدوم الاتوبيس وهى تنصب عرقا « سيكون اليوم شديد الحرارة » فكرت في ذلك وعيناها تابعان مرور البشر في الميدان الواسع الذى يتوسطه تمثال الفرعون القديم جاء الاتوبيس فانحشرت وسط ركابه وبعد اربع محطات نزلت اتجهت الى المدرسة ، ودخلتها ، وضعت السلة في حجرة المدرسات ، مرت بدورة المياه ، تبولت وغسلت وجهها ويديها ثم عادت الى

الحجرة وجلست تنتظر دق الجرس ، دخلت الفصل ، درست ، جمعت الكراسات بعدها دخلت فصلا آخر والقت على التلميذات درسا مختلفا وجمعت كراسات اخرى وضعتها جميعا في دولاب خشبي عتيق بحجرة المدرسات ثم حملت سلتها وغادرت المدرسة

مرة ثانية انحسرت في الأوتوبيس ثم عادت فنزلت منه دخلت الى مدرسة « محو الامية للكبار » توجهت الى مكتب الوكيله تبادلت معها كلمات عابرة عن رحلتها الى الصعيد وتركت السلة عندها دخلت الفصل ، درست حصتين متتاليتين للحاضرات اللاتي كانت تتفاوت اعمارهن من الخامسة عشرة للسنتين شرحت وفصلت وكررت وانصتت ثم عادت تتكلم وعندما عادت الى مكتب الوكيله التي كانت امرأة ممتلئة تلبس دائما ثوبا اسود كأنها في حداد ولم يكن لدى بشرى اى علم انها تلبس الحداد على احد بالذات سألتها ان كانت تقبل مشاركتها فى الاكل وافقت طلبت بشرى من سيدة عاملة النظافة الوحيدة بالمدرسة ان تشتري ساندويتشات فول وتصنع لهما شاي ولما اتت المرأة بالمطلوب اكلتا وشربتا وبقيت بشرى جالسة لنصف ساعة اخرى تسمع ثرثرة الوكيله دون ان تستمع تماما لما تقوله ثم قامت وسارت حتى ميدان الجيزة الذى لم يكن يبعد سوى خطوات قليلة عن المدرسة ووقفت تنتظر الأوتوبيس جاء وركبت . كانت الساعة الرابعة والنصف وحركة المرور أهدأ وجدت لنفسها مقعدا ، جلست وبعد محطتين قامت ونزلت وسارت باتجاه باب الجامعة

عند الباب سألها شرطى الحراسة ورجل الامن الآخر فى الثياب المدنية ان تبرز بطاقها الجامعية فأبرزتها سألها عن السلة فأوضحت انها اتت من السفر هذا اليوم نفسه وان بالسلة ارغفة قال رجل الامن انه لا بد ان يتأكد من الامر بنفسه رفع الشرطى الورقة التي تغطى السلة وراح رجل الامن يغوص بأصابعه فيها .

استردت بشرى سلتها واتجهت يمينا الى ملحق كلية الآداب دخلت وصعدت الى الطابق الثانى حيث قسم التاريخ مرت بعم سالم ساعى القسم واودعت عنده السلة ودخلت الى المحاضرة وجلست تنتظر لم يأت المحاضر الا بعد ساعة من موعده وعندما أتى حاضر وذهب أخذت سلتها من عم سالم وغادرت المبنى دقت ساعة الجامعة دقتين متعاقبتين نظرت بشرى الى ساعتها ، كانت السادسة والنصف

خرجت من البوابة الحديدية تطلعت الى النصب التذكارى لشهداء الجامعة « هل هذه شعلة التى تعلقه ؟ » تساءلت وهى تفكر انه يمزج بين شكل المسلة وزهرة اللوتس ولم تكن قد لاحظت ذلك أبدا عبرت وواصلت السير كانت اشجار الاكاسيا امبروزا المزهرة والممتدة حتى نهاية الشارع تلقى بظلالها على الطريق هبت نسمة هواء ففكرت ان حرارة النهار آخذة فى الانحسار وان يومها كان طويلا وانها منهكة راحت تتابع ازهار الاكاسيا الحمراء والبنفسجية التى تتداخل مع الاوراق الخضراء المُنمنمة وعندما وصلت الى التقاطع خالجتها رغبة فى الجلوس « فى هذا المكان » ولم يكن هناك سوى السور الحجرى للمشتل المتاخم لحديقة الأورمان فجلست عليه كان التمثال الآن امامها جانيبا ، الجزء الايمن من المرأة ، ثوبها الحجرى والذراع المرفوعة فى زاوية قائمة حتى تلامس اليد غطاء الرأس وأبوالهول ترى رأسه الآدمى من موقعها لكن لا ترى الا جزءا من جسده

أغمضت عينها وامسندت ظهرها ورأسها الى القضبان الحديدية التى تعلو وتكمل سور المشتل ، فتحت عينها وراحت تتأمل المرأة الحجرية الناهضة قامت من مكانها وحملت سلتها وعبرت تجاوزت السياج الصغير وخلعت حذاءها فأحست بالعشب الندى على قدميها ، وضعت يدها على قاعدة التمثال فأدهشها دفء الحجارة . تمت لو ان باستطاعتها ان تتجاوز القاعدة وتمر بيدها على جسد

المرأة الرأس العالى وغطاؤه القديم والرقبة والحدى والبطن وثنيات الثوب والذراع المرفوعة الى الرأس والاخرى التى تسكن الى رأس الى الهول تملكها الرغبة فى ذلك كأنما هى حاجة تُلح ولكن قامتها لم تكن تصل

جلست واسندت ظهرها الى قاعدة التمثال واغمضت عينيها . سمعتها تدق ، اربع دقائق متصلة تعلن اكتمال الساعة ثم ثمانى دقائق تفصل بين كل منها والاخرى لحظة صمت خاطفة بعد ذلك لم تسمع شيئا الا ذلك الصوت الذى جاء يوقظها بفظافة :

— قومى يا امرأة

رفعت اليه عينيها تتساءل وراح هو يسألها عن بطاقتها الشخصية وعن السلة التى بجوارها وعن سبب نومها فى هذا المكان أوضحت انها كانت فى طريقها الى البيت وانها أرادت ان ترى التمثال عن قرب وانها اغفت من شدة التعب أعطته بطاقتها ليتأكد راح يحقق فيها وهو يقول

— لم اكن اعرف ان المومسات وصلن الى طريق الجامعة

— أنت وقع !

— أنت تتعدى على السلطة

— أنت الذى تتعدى على بهذا الكلام

كانت بشرى الآن قد قامت ووقفت فى مواجهة الرجل .

— بنا اذن الى القسم

— ليس من حقك

— من حقى ان اقبض عليك للتحرى ، أنا رجل أمن !

قادها الى قسم الشرطة وعندما دخلا الى الضابط الذى كان يجلس وراء مكتبه فى قاعة فسيحة قالت له عما ماحدث معها فابتسم ابتسامة باردة وقال انه كان عليها ان تبعد نفسها عن مواطن الشبهات فما الذى يجعلها تنام فى الطريق العام تحت تمثال نهضة مصر

— قلت انى كنت متعبة وفى طريقى من الجامعة الى البيت جلست لاستريح قليلا فغفوت

كان صوتها الآن حادا سأها بغلظة

— ماهذه السلة ؟

— بها خبز

— خبز ؟

— نعم

— دعينى انظر .

رفعت غطاء السلة كاشفة عما فيها من ارغفة ثم امسكت واحدا منها
ورفعتة في وجه الضابط

— هل هذا خبز ؟

— نعم

— انه منتفخ ومكور بشكل غريب

— ولكن هذا هو الخبز الشمسى

— ياسلام !

— ان كنت تجهل هذا فهى مشكلتك

— الزمى حدودك والا ستندمين

قال ذلك ثم نادى بصوت صارم واجش

— يا عبد الله

دخل عبد الله مهرولا ، دق قدميه ورفع يده اليمنى بالتحية وقال بسرعة
تتآكل معها مخارج الحروف

— نعم يا أفندم .

— ما هذا ؟

سأله الضابط مشيرا الى الرغيف

— عيش يا أفندم

— هل أنت متأكد ؟

— متأكد يا أفندم

— خذ هذه السلة وقف هناك

حمل عبد الله السلة الى حيث اشار الضابط ، في الطرف الاقصى من
القاعة المترامية

— ضع السلة على الارض وخذ رغيفا واقطعه

— أقطعه ؟

سأل عبد الله

— إقطعه !

أكد الضابط .

مد الشرطى يده الى رغييف الخبز بشيء من وجل وقطعه نصفين

— ارميه

— نعم يا أفندم ؟

— ارميه يا بهيم !

ارتبك عبد الله ورمشت عيناه مرات متعاقبة ثم مال بجذعه ووضع شفتى
الرغييف ببطء على الارض

— التالى

— نعم يا أفندم ؟

— يا بهيم الرغييف التالى حمار لاتفهم !؟ هذه الأرغفة يمكن ان يكون بداخلها
شيء ، متفجرات ، مخدرات منشورات أى شيء ممنوع

رمشت عيناه عبد الله اكثر ولكنه مد يده مرة ثانية وثالثة ورابعة ، يمسك
بالرغييف ويكسره ويرفع به كلتا يديه امام عينى الضابط الجالس بعيدا وراء مكتبه
فى الطرف المقابل ثم ينحنى ويضعه على الارض وعندما انتهى كانت الارغفة قد
اصبحت مكومة بجواره

— انصرف !

صرخ الضابط دق عبد الله قدميه على الأرض ورفع يده بالتحية متمتا
« حاضر يا أفندم » وذهب قال الضابط

— واجب الشرطة حماية الامن ونحن لانلعب لم نأت اليك في دارك انت
التي عرضت نفسك لهذا الموقف لاتوجد امرأة محترمة وعاقلة تنام على
العشب ليلا وتتحجج بانها كانت تتأمل تمثال نهضة مصر فأغفت هذا
سلوك شاذ ، كوفى اكثر حرصا في المستقبل

للمت بشرى الخبز المكسر من الأرض واعادته الى السلة وغادرت القسم
سارت حتى وصلت الى كوبرى الجامعة وبدأت تعبر

في منتصف الطريق راح الضيق المكتوم بداخلها يفيض دموعا فتوقفت
أسندت مرفقيها على السور الحديدى للجسر نظرت الى يمينها فرأت مجرى النيل
واسعا ولامعا يعكس اضواء كثيرة ورأت كوبرى عباس قريبا فكرت في رحلة النهر
« من هذا الجنوب يأتي ، عبر المنحنيات والسدود » نظرت الى يسارها فرأته
مندفعا في طريقه الى البحر دفاقا ومهيبا

واصلت الطريق !!!

مايو ١٩٨٥

صدر للمؤلفة

- ١ — الطريق الى الخيمة الأخرى دراسة في أعمال غسان كنفاني ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧٧
- ٢ — التابع ينهض الرواية في غرب افريقيا ، دار ابن رشد ، بيروت ١٩٨٠
- ٣ — الرحلة .. أيام طالبة مصرية في امريكا ، دار الآداب ، بيروت ١٩٨٣ .

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية ٥٦١٩ / ٨٥

الترقيم الدولي ٧ - ٠١٨ - ٤٤٢ - ٩٧٧ ISBN



« إن يكن يوم الصراج قد حضر فدا بعد - رأيت رأيت ودا
 مركب - موجه ونسائل على - مايا السائل - كبريت من - الحدا
 انقلب - رأيت باح انقلب برل من على موجه ويضبط رأيت من
 كراول على عطفه ويضبط رأيت أو يطلع فدا صفا - رأيت من
 ماكنت - فقال - انكرا من انكرا أ - فدا تكاف - اليوم ثم
 انكرا - ١٤٠٠ - فدا ودا من دماي فدا فدا - انكرا
 تكاف على انكرا فدا و - ان فدا من رأيت بعد
 رأيت »

داو المصنف العرب
 ١٤٠٠ - فدا من دماي فدا فدا - انكرا

